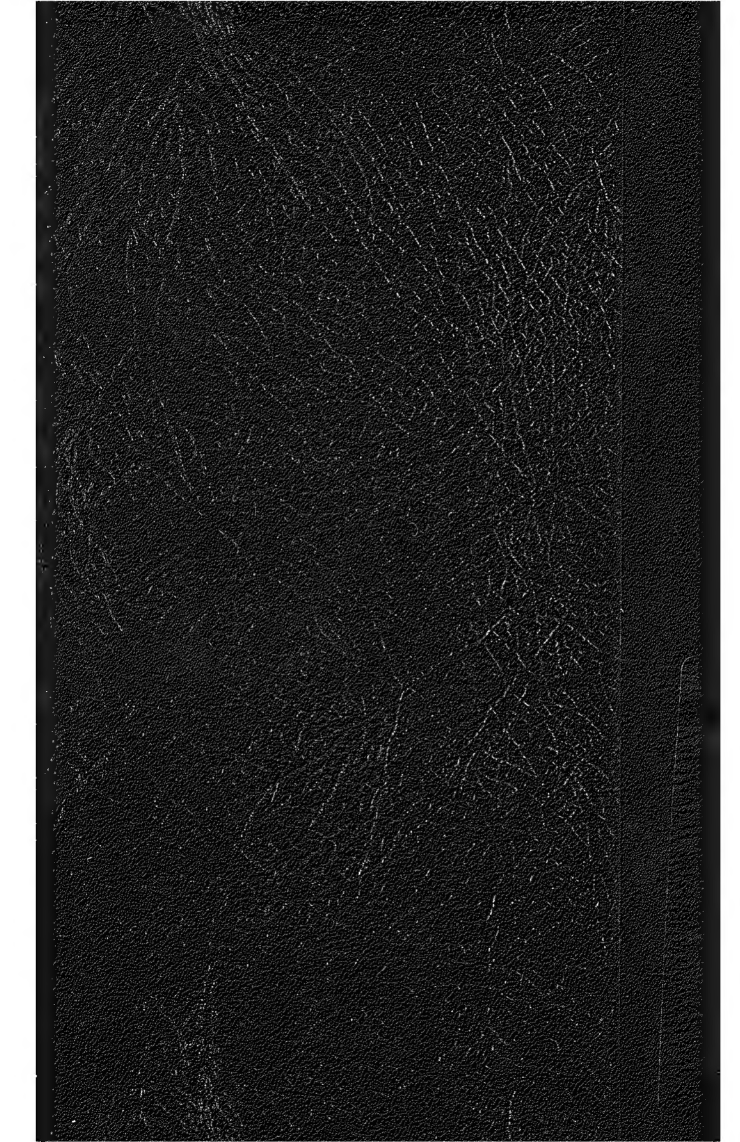


اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

د. مصطفى الفقي

الإسلام في عالم متغير



تقديم

٠٠ هذه صفحات موجزة تدور حول محور واحد هو استقرار مصر السياسى ، رأيت أن أبعث بها كرسالة الى كل المصريين فى ظروف يمر فيها الوطن باختبار صعب لصلابة أبنـائه وتماسك فئاته ، وهوَ وطن اجتاز من قبل أقسى المحن وأعتى الأزمات ٠٠

ولقد اخترت لهذه الصفحات عنوانا هو « الاسلام فى عالم متغير » حتى تكون خلفية ما يجرى على أرض الوطن واضحة لكل ذى بصيرة فالتغيرات الدولية والتحولات الاقليمية تستحق منا الوعى بالارتباط بين الداخل والخارج وادراك طبيعة العالم من حولنا ٠٠

حفظ الله الكنانة وشعبها العريق لتبقى كما كانت دوما بلدا آمنا يتصل عطاؤها للدنيا ما جرى نيلها ٠٠ وما بقيت أهرامها ٠٠

د٠ مصطفى الفقى

ابريل ١٩٩٣

الاسلام السياسى فى مصر الحديثة

لقـد تميزت مصر دائمـا بشخصية دولية فريدة سواء فى تاريخها القديم أو الحـديث ، ولقـد لعب بناؤها الحضارى وتراثها الثقافى الى جانب موقعها الجغرافى المتميز الذى يجعلها «أرض ملتقى» بين كل التيارات الفكرية الوافدة أو القوافل التجارية العابرة ، لعب كل ذلك دورا تاريخيا أدى الى ظهور هوية قومية ذات جاذبية خاصة تتمتع بها مصر بين الأمم والشعوب ·

واذا قفزنا فوق مسـار التاريخ المصرى العريق لنصـل الى العصر الحديث فسوف نعتبر الحملة الفرنسية بدايته بما صاحبها أو ارتبط بالسنوات القليلة لوجودها فى مصر من تأثيرات ثقافية واكتشافات حضارية ولكن الأمر الذى لا نجادل فيه كثيرا ان « محمد على » هو باعث نهضة مصر الحديثة سياسيا وعسكريا ، واقتصاديا وثقافية فرغم أنه وافد أجنبى الا أن طموحاته الشخصية وتطلعاته السياسية الى جانب النزعة الاستقلالية المصرية التى اعتمد عليها فى مواجهة السلطان العثمانى ، تجعلنا نقول أن محمد على هو واضع الأسس الحديثة لمصر المعاصرة ·

ولقد لعبت مصر دورا نشطا عبر تاريخها فى المجالات المختلفة ولكن دورها الثقافى الذى يعتمد على حضارتها العريقة يمثل أبرز أدوارها على الاطلاق بل هو ركيزة انتشارها السياسى ودعامة تحركها القومى سواء كان ذلك على الصعيد العربى أو الاسلامى أو الافريقى أو العالمى ، ولقد ارتبط دائما الدور المصرى ـ صعودا وهبوطا ـ بحجم مشكلاتها الداخلية ودرجة الاستقرار السياسى فيها ··

وقد كان للدين فى مصر القديمة والحديثة على السواء تأثيره

القومى على الحكام والمحكومين حتى اعتقد الغزاة أن الطريق الى قلب الشعب المصرى يمر عبر ديانته ، واعتبر الولاة الدين غطاء للحكم ومظلة للسلطان ٠٠

لقد زار « الاسكندر الأكبر » ـ بآماله العريضة ـ معبد الاله المصرى القديم فى « سيوه » ، وتملق نابليون بونابرت ـ بأحلامه الواسعة ـ الدين الاسلامى وهو فى طريقه الى مصر « قلب العالم » ٠

ألم يعتمد « محمد على » فى اكتساب شرعية توليه الحكم على رجال الدين وعلماء الأزهر ونقيب الأشراف باعتبارهم قادة الرأى وأهل الحل والعقد ؟ ألم يحاول مستشارو فاروق ـ آخر ملوك مصر ـ أن يجعلوا لحفل تتويجه طابعا دينيا يضفى على الملك الشاب مسحة وطموحات فى الخلافة الاسلامية التى سقطت بانهيار الدولة العثمانية؟ هـكذا ٠٠ الدين فى مصر له مكانته الرفيعـة وتأثيره الدائم على الانسان وطقوس حياته ومراسم تصرفاته ٠٠

ولقد ارتبطت بدايات حركة التنوير فى مصر الحديثة بحركة موازية للاصلاح الدينى قاد لواءها الامام محمد عبده فى محاولة جادة لحل الاشكالية المصطنعة بين الاسلام ومظاهر الحياة الحديثة الى جانب تطوير الأزهر الشريف ليكون منارة الدين الحنيف ٠٠ يواجه الزيف ويكشف البهتان ٠٠ ومع بدايات هذا القرن بدأت بوضوح ارهاصات التوجه الاسلامى فى بعض كتابات محمـد رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى وشكيب أرسلان وغيرهم من المفكرين العرب الذين استهوتهم الظاهرة الاسلامية والارتباط بينها وبين أحـوال المسلمين وأهمية الانضواء تحت مفهوم الجامعة الاسلامية فى مواجهة مظاهر التداعى السريع للخلافة العثمانية ٠

وبينما محاولات (التتريك) تمضى بشكل منتظم يدق المسمار الأخير فى نعش الخلافة ، كانت « الثورة العربية الكبرى » تمضى

موازية لمحاولات احياء الخلافة الاسـلامية بين العرب ولتعطى رواد الفكر القومى مبررا قويا للتركيز على «العروبة» وابراز التلازم بينها وبين « الاسلام » ٠٠ ثم كانت هى مصر أيضا مبعث الفكر ومصدر الدعوة ، فقد انطلق داعية يعمل بالتدريس فى مدينة الاسماعيلية هو الامام الشهيد حسن البنا الذى ينتمى لمحافظة البحيرة ـ وهى المعروفة بانتساب عدد كبير من أئمة الأزهر وعلماء الاسلام اليها من أمثال محمد عبده ومحمود شلتوت ومحمد الغزالى وغيرهم ـ انطلق ذلك الرجل بدعوة « الاخوان المسلمين » فى عام ١٩٢٨ حيث الخلافة الاسلامية قد هوت ، والاحتلال البريطانى يجثم على صدر الوطن ، وفؤاد الأول يحـكم مصر بعداء واضح للحركة الوطنية وحساسية شديدة تجاه ثورة ١٩١٩ ٠ فانتشرت دعوة الاخوان المسلمين خالصة موجهة لشعب معروف تاريخيا بتدينه وارتباطه بالقيم الروحية ، وظل الدعاة فى انتشارهم السريع الذى أكد ـ بعد فترة وجيزة ـ أن أى دعوة اسلامية هى بالضرورة حركة سياسية من منطلق أن الاسـلام (دين ودنيا) وهو أمر بدأ يزعج حكومات ما قبل ثورة ١٩٥٢ حيث اتخـذ منها حزب الوفد وهو حزب الأغلبية ، موقفا حذرا لأسباب عديدة يتصل بعضها بفلسفة الوفد ـ حينـذاك ـ كتيار ليبرالى علمانى يسعى لتكريس الوحدة الوطنية كواحدة من أبرز انجازات الثورة الشعبية عام ١٩١٩ الى جانب تحفظه على علاقة الجماعة بالملك وما كان يشاع عن محاولة القصر استخدامها ضـد الوفد ، ولعل اللقاء الشهير بين مصطفى النحـاس زعيم الأغلبية والامام حسن البنا مؤسس الحركة ومرشدها الأول ، والذى تمكن فيه الزعيم من اقناع الامام بسحب ترشيحه للانتخابات النيـابية محـاولا تأكيد الصبغة الدينيـة للجمـاعة على حسـاب طموحاتها السياسية ، لعل ذلك اللقاء يعكس هواجس الوفد المبكرة ومخاوفه الواضحة من أى محـاولة للعب بورقة الدين على مسرح الحيـاة السياسية المصرية الحديثة ٠

ثم توالت الأحداث بعد ذلك على النحو الذى أدى الى تدخل الدولة لتحجيم دور الحركة وايقاف مدها المتزايد حتى كان اغتيال الامام حسن البنا ثم قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ والتى كان للجماعة دور مؤثر على بعض ثوارها من خلال اختراقها لتنظيم الضباط الأحرار وانضواء عدد من أفراد التنظيم بالعضوية أو الانتساب لحركة الاخوان المسلمين حيث كان الالتقاء فى الهدف والرغبة فى الاصلاح بغض النظر عن اختلاف المسالك والأساليب الى جانب الخلفية الدينية لعدد من الضباط الثوار من أبناء الطبقة المتوسطة أو أعيان الريف ·

ثم كانت المواجهتان الشهيرتان بين عبد الناصر والاخوان المسلمين فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٦٥ حيث اكتظت السجون بالمعتقلين السياسيين من الجماعة واليسار المصرى فى وقت واحد ، ومن تلك السجون تخرجت عناصر أصبحت فيما بعد هى القادرة على قيادة التوجيه الفكرى والتنوير الثقافى فى الاتجاهين الاسلامى والاشتراكى رغم اتساع المسافة بين التيارين ·

ولم تقف الدعوة الاسلامية فى مصر وغيرها من أرجاء العالم الاسلامى عند اطار جماعة الاخوان المسلمين ، وتجاوزت ذلك الى استخدام من نوع آخر ربط الدعوة بالعنف ونقلها نقلة نوعية تزيد كثيرا عن عنف جماعة الاخوان المسلمين فى بعض مراحل دعوتها وأصبحنا ازاء حركات جديدة تبتعد أكثر عن جوهر الاسلام وتقترب أكثر من صراع السياسة وتتخذ العنف أسلوبا وحيدا للاعلان عن فكرها واثبات وجودها ·· فكانت جماعة التكفير والهجرة وتنظيم الجهاد وغيرهما من عشرات المسميات التى مارست العنف فى الشارع المصرى على امتداد الربع قرن الأخير وتجاوزت حدود مصر لتجعل لنشاطها صفة أممية فكرا وتطبيقا بحيث تحتوى اجتهادات داعية مثل أبو الأعلى المودودى وممارسات الثورة الاسلامية فى ايران وآراء

عدد من المتطرفين المحليين تحت مظلة الدعوة الاسلامية ، وأصبح التاريخ المصرى الذى يحفل بأسماء شهداء للعنف السياسى من أحمد ماهر والنقراشي وحسن البنا والشيخ الذهبي ورفعت المحجوب وغيرهم ، أصبح هذا التاريخ حافلا بنماذج أخرى موازية من أعمال العنف الجماعى بدءا من حادث الكلية الفنية العسكرية وانتهاء بتفجير مقهى فى أكبر ميادين العاصمة فى شهر رمضان المبارك وبينهما عشرات الحوادث التى راح ضحيتها مئات من الأبرياء ولعل من أبرزها أحداث أسيوط الدامية غداة اغتيال الرئيس الراحل محمد أنور السادات ·

ولابد من ابراز أهم العوامل التى أسهمت فى زيادة التطرف الدينى واشتعال حدة العنف السياسى ، ويمكن ايجازها فيما يلى :

١ ـ كانت هزيمة العرب ـ خصوصا مصر ـ أمام اسرائيل عام ١٩٦٧ بمثابة صدمة عنيفة للضمير العربى والاسلامى فقد كان هناك تصور واحد هو النصر والقضاء على اسرائيل ككيان سياسى ولم تحسب القيادة المصرية بدائل للاحتمالات الأخرى ، فشحنت الجماهير حماسا للقتال وثقة فى النصر ثم كانت النكسة التى أحبطت مشاعر الانسان العربى وهزت صورة قيادته وزلزلت الاحساس القومى بالانتماء لأمة ذات تاريخ مجيد ، فكان البحث فى الأعماق عن هوية أخرى ـ غير القومية ـ تفسر ظروف الهزيمة وتبرز أسبابها ، فتولد لدى الناس شعور عميق بأن ابتعاد حكم الرئيس عبد الناصر عن تغليب العامل الدينى فى اتخاذ القرار السياسى هو المسئول عن ما حاق بالعرب عموما والمصريين خصوصا من يأس يقترب من حافة الانهيار ، بل لقد استيقظ لدى المصريين احساس بأن العودة الى الله والتمسك بمظاهر الحكم الاسلامى قد تكون هى السبيل لاستعادة التوازن المفقود والخروج من أجواء الهزيمة ومرارة آثارها ·· فكان ظهور الرئيس عبد الناصر لأول مرة بعد النكسة

في مناسبة عامة مقترنا باحتفال ديني لذكرى ميلاد أحد رموز البيت النبوى الشريف بالقاهرة ، بل اننى أزيد على ذلك أن حماس الأقباط وربما المسلمين أيضا لقصـــة ظهور السيدة العذراء فوق كنيســة الزيتون كان جزءا من ذلك الشعور الجديد حتى لقد ارتبط انتصار أكتوبر المجيد بتكبيرات الضباط والجنود فى ساعات العبور العظيم٠٠ وهكذا بدت ما يمكن أن نطلق عليها «العلمانية» مسئولة عن الهزائم والنكسات بينما العودة الى الأصولية والبحث فى الهوية الدينية هى الطريق الى النصر والسبيل الى الخلاص ٠

٢ ـ برحيل الرئيس عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ وتولى الرئيس السادات زمـام الأمور انتقلنا من مرحلة الزعيم البطل والقـائد الأسطورى الى مرحلة رجل الدولة الذى يغلب المصلحة الوطنية على الكرامة القومية ،فالسادات ـ بكل المقاييس ـ متمرس سياسيا وله رؤية تاريخية واضحة ووعى خاص بتطور أساليب الحكم فى مصر الحديثة ، فاستهل حكمه بتصفية خصومه السياسيين بطريقة فريدة من نوعها فى بساطتها وسرعتها وكان عليه أن يبحث عن دعم جماهيرى يواجه به اليسار المصرى وفلول الناصريين ويخلق شعبية مستقلة للرئيس الجديد الذى عاش سنوات طويلة من شبابه وصدر حياته فى الشارع السياسى ، فتصور الرئيس السادات أن دعمه للتيار الاسلامى خصوصا فى أجياله الجديدة سوف يكون سندا له ودعما لحكمه وساعده على ذلك بعض الشخصيات السياسية من القيادات السابقة للاتحاد الاشتراكى وأعضاء مجلس الأمة «الشعب» خصـوصا من بعض محافظات الصعيد ، فكان السماح للعنـاصر الاسلامية بالتدريب العسكرى والارتباط التنظيمى فى مواجهة القوى السياسية الأخرى خصوصا وأن شعبية الرئيس السادات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ كانت فى حاجة ماسة الى دعم جماهيرى بسبب حديثه المتكرر عن الاستعداد للحرب وارجاء قرارها لأكثر من مرة ٠

٣ ـ كان رد الفعل الطبيعى لحماس الحكم للتيار الاسلامى ومحاولة استخدامه هو تكرار حوادث الفتنة الطائفية فى ضواحى القاهرة وبعض المحافظات حيث تطورت سنوات السبعينيات لتخلق مواجهــة مفتعلة بين الدولة والكنيسة القبطية التى جـاء وصول رأسها الجديد البابا شنودة الثالث الى الكرسى البابوى بعد شهور قليلة من وصول الرئيس السادات الى الحكم وبذلك أصبحنا أمام مزاج عام جديد يختلف فى توجهاته وممارساته عن الخمسينيات والستينيات ، ولا شك أن الفتنة الطائفية وتكرار حوادثها تزكى دائما التطرف الدينى فى الجانبين وتخلق جوا من الحذر والترقب وانعدام الثقة المتبادلة .

٤ ـ كان حصاد سنوات المواجهة العسكرية بين مصر واسرائيل لقرابة ثلاثين عاما أثره على الاقتصاد المصرى الى جانب نتائج المشكلة السكانية وانهيار الخدمات العامة تقريبا مع منتصف السبعينيات مما أدى الى حالة من التذمر بلغت ذروتها فى أحداث يناير ١٩٧٧ نتيجة ارتفاع طفيف فى أسعار بعض السلع الأساسية ، بل ان قـــرار الرئيس السادات بزيارة القدس الشهيرة وايجـاد حل غير تقليدى للصراع العربى ـ الاسرائيلى قد تولد لديه فى لحظات غضب الجماهير التى كانت تعانى من الاختناق الاقتصادى وتدهور الخدمات وهو ما جعله يتخذ مبادرته من أجل السلام بعد ذلك بأقل من عشرة شهور ، ولا شك أن مناخ الأزمة الاقتصادية التى فرضت نفسها على مصر فى العقود الثلاثة الأخيرة كان له أثره فى احداث ارتباط بين التطرف الدينى والرفض السياسى والوصـــول بهما الى درجــة العنف التى عرفناها فى السنوات الأخيرة ، فالتطرف ابن شرعى للفقر ، وهل أحياء مثل عين شمس وامبابة وبعض مناطق الصعيد الا أمثلة لانخفاض مستوى المعيشة ونقص الخدمات ؟ بقى عامل آخر له ارتباط بالظروف الاقتصادية وأعنى به البطالة بين الشباب الذى لا يجد عملا بعد انهاء دراسته ولا يتمكن من الهجرة المكانية بحثا

عن عمل في بلد عربي أو أجنبي فيقع فريسة التطرف ويتجه الى الهجرة الزمانية فينعزل عن أسرته ويكفر بمجتمعه ويبتعد تماما عن روح العصر وبذلك يتحول الشباب صغير السن قليل التجربة الى وقود حقيقي للتطرف وأداة للعنف الديني والسياسي .

٥ ـ ان انحسار المد القومي باخفاق مشروع عبد الناصر العربي بهزيمة ١٩٦٧ وفقدان الجماهير العربية ثقتها في المستقبل ، وتوالي الاحباطات على المواطن العربي قد زرع في النهاية عقدة نقص قومية كان حصادها تمزق قومي وضعف لروح الجماهير العربية بل واختفاء كامل لظاهرة « الشارع العربي » ولقد كان انحسار المد القومي مكسبا تلقائيا للمد الديني ، فعلى الرغم من أن الحركة الاسلامية ذات مواقف قومية ايجابية في تاريخنا الحديث مثل دخول المتطوعين من الاخوان المسلمين للمشاركة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ الا أن منطلقهم في ذلك كان منطلقا اسلاميا وليس فقط عربيا فهم يرون في القضية الفلسطينية بعدا اسلاميا الى جانب الاهتمام الاسلامي بالقدس وأهميتها الروحية للمسلمين ، بل ان حركة « حماس » حاليا ليست الا تعبيرا عن البعد الديني في النضال القومي فهي تحارب اسرائيل تحت مظلة اسلامية فلسطينية قبل أن تكون مظلة عربية فلسطينية ، وهكذا يبدو انكماش الفكر القومي وشيوع الشعوبية والانزواء بين الدول العربية عاملا مؤثرا في ارتفاع نغمة التطرف واختفاء مظاهر العلاج السياسي لتلك الظاهرة .

٦ ـ ان الفراغ السياسي وغياب المشروع القومي مسئولان بشكل أساسي عن تفريغ الساحة من كل ما يشد اهتمام الشباب ويشعل عاطفته الوطنية بالاضافة الى ضعف التنظيمات السياسية المختلفة في الوطن العربي بدءا من الأحزاب ـ ان وجدت ـ وانتهاء بكل أشكال العمل السياسي المتاح وهو ما يجعل الفكر المتطرف وحيدا على مسرح الحياة السياسية يصول ويجول بين الشباب دون فكر منافس أو تيار مقاوم .

٧ ـ ان مناهج التعليم السائدة وأساليب التربية التقليدية في معظم دول الوطن العربي مسـئولة عن روح الاستسلام أحيانا لمناخ التطرف بل وتغذية الروح الطائفية في بعض الأحيان ، فالتعليم ـ خصوصا في مراحله الأولى ـ نوع من التأثير عند المنبع وهو الذي يحدد مسار الانسان في مستهل حياته ، كمـا أن برامج الاعلام خصوصا المرئي منها والذي يقفز فوق حاجز الأمية ليصل الى الناس في بيوتهم تمثل عنصرا هاما وفعالا في تشكيل ظاهرة الرأي العام لمواجهة التطرف الديني والقضاء على العنف السياسي ٠

وسوف نتابع في الصفحات التالية قضايا ذات صلة بموضوعنا ثم ننتهي منهـا بتصور عام لأسلوب مواجهة ذلك الذي يعترض الطريق ، ويصيب المسيرة ، ويهدد المستقبل ٠٠



الوحدة الوطنية المصرية(*)

(★) الأهرام ١٥ يناير ١٩٨٤ .

تنفرد مصر بدور متميز فى تاريخها الاجتماعى يعطيها سمة التعددية وخاصية التنوع لأسباب تتصل بموقعها الجغرافى ووضعها الفريد الذى جعلها مركز جذب حضارى وثقافى تشكلت به فى النهاية شخصية مصر الحديثة ، التى قدمت تجربة انسانية ثرية فى التعايش بين أصحاب الديانات المختلفة ونبذ مزاجها القومى على امتداد تاريخها الطويل كل نزعات التعصب أو محاولات تكريس الطائفية ..

ويثير رصدنا لما يجرى على أرض الوطن خواطر تلح على المهتمين بشئون الوحدة الوطنية المصرية ، التى تجسدت مظاهرها دائما فى ذلك التجانس البشرى والانصهار الاجتماعى بين أبناء الوطن الواحد وهى حقيقة اعترف بها الجميع حتى ان الاستعمارى البريطانى العتيد « كرومر » يؤكد ذلك فى كتابه مقررا أنه لم يلحظ أى اختلاف بين المسلم والقبطى من قمة الرأس الى أخمص القدم ، فلهما نفس اللغة كما انهما يتمتعان بنفس الروح ، فالجميع مصريون يؤدون صلواتهم فى المساجد أو فى الكنائس بل ان خليفته « جورست » يشير الى معنى مشابه فى أعقاب فترة اضطراب طائفى مع مطلع هذا القرن فقد نشرت التايمز اللندنية فى عددها الصادر فى ٢٦ يناير ١٩١١ برقية لوكالة رويتر تقول « لقد زار سير الدورن جورست المديريات التى تضم أعدادا من الأقباط فى محاولة للاستكشاف والتحرى عن مصادر شكواهم ولكنه

وجد انه خارج القاهرة لا توجد شكاوى ذات بال ، وقد أعلن أن المسلمين والأقباط يعيشون بوجه عام معا فى هدوء خصوصا لو تركوا وشأنهم ، وذكر أن أسوأ خدمة يمكن ان تقدمها للأقباط هى ان تعاملهم كتجمع منفصل وأضاف أنه وجد ان مصالح الأقباط التعليمية تلقى الاهتمام والعناية من مجالس المديريات فى كل المناطق التى زارها » • واستقراء تاريخنا الحديث الذى يكشف عن تلك الفترة الحرجة التى عبرتها الوحدة الوطنية المصرية مع بدايات القرن الحالى يؤكد ان مصر قد تجاوزتها بفضل روحها الكامنة وتراثها المتأصل وحكمة أبنائها اذ يكفى ان نتذكر ذلك البيان الذى أصدره واصف ابن بطرس غالى فى ٢٣ يناير ١٩١١ يعلن فيه عن دعوته الى تناسى حادث مقتل والده وآثاره من أجل المصلحة المشتركة والأخوة بين أبناء الأمة الواحدة وليس ذلك غريبا فلقد شهدت تلك الفترة أيضا الميلاد الحقيقى لتيار علمانى ليبرالى فى الحياة السياسية المصرية نما بعد ذلك ليبلغ ذروته فى ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ ، ولا يبدو الحديث مكتملا دون الاشادة بذلك التيار الذى أتاح للأقباط والمسلمين على السواء مناخا صحيا للاسهام فى الحركة الوطنية انتقالا من فكر العصور الوسطى ليتواءم مع مزاج القرن العشرين مواكبا علومه وآدابه واكتشافاته ، واضعا نهاية للجمود والتخلف ، وحدا فاصلا بين التدين والتعصب •• بين الايمان الواعى والاستغراق الغيبى •

وليس من شك ان زعامة سعد زغلول ـ التلميذ المباشر للأفغانى وعبده ـ هى الافراز الطبيعى لتلك المرحلة وتجسيد نابض لروح ثورة ١٩١٩ التى كان رسوخ الوحدة الوطنية المصرية أبرز سماتها وأعظم انجازاتها فالنمط الزغلولى لقيادة الحركة الوطنية المصرية ـ والذى اجتذب الأقباط بقوة الى الحياة العامة ـ يقترب الى

حد كبير من النمط الغاندى فى الهند حيث احتوى حزب المؤتمر طوائف الهند المختلفة وأصبح الولاء للوطن من خلاله يعلو على كل الولاءات الطائفية مع الأخذ فى الاعتبار ذلك الفارق بين التجربة الهندية والتجربة المصرية من حيث الظروف التاريخية والميراث الاجتماعى ، فالهند عرفت الصراع الطائفى على امتداد القرون الأخيرة على نحو لم تعرفه مصر التى تعتبر فيها الاضطرابات الطائفية استثناء لا يحدث الا فى فترات الفراغ السياسى أو الظلم الاجتماعى .

وهذه مناسبة نشير فيها الى عدد من السمات المرتبطة بالوحدة الوطنية المصرية : ـ

أولا : ان الفتن الطائفية تولد فى ظل جو عام تنمو فيه التناقضات الاجتماعية وتطفو على سطحه قيادات هزيلة ويتميز ذلك المناخ بعدم الاستقرار السياسى والتوزيع غير العادل للدخول والثروات على نحو يدفع بكل مظاهر الاضطراب داخل المجتمع بحيث تصبح الفتنة الطائفية جزءا من كل يحفل بالصراعات بين القوى الاجتماعية سواء كانت طبقات أو فئات أو طوائف دينية أيضا ، فحين تضعف الصحة النفسية للمجتمعات تتفشى فيها بالضرورة عدوى التعصب والتطرف .

ثانيا : ان استقراء التاريخ الحديث يثبت دائما ان الفتن الطائفية هى دائما نتيجة وليست سببا ، فهى مظهر من مظاهر الخلل فى الهيكل الاجتماعى وأحد الأعراض المعروفة لحالة من التردى فى بناء القيم وانحدار نمط السلوكيات ، ان ظهورها يعنى ان المجتمع يعانى من أعراض طارئة تصيب نسيجه وتهدد وحدته وتماسكه .

ثالثا : ان الفراغ السياسى وخلو ساحـة العمل الوطنى من العناصر الراغبة والقادرة على قيادة المجتمع نحو أهدافه الصحيحة ، عامل أساسى فى تهيئة مناخ الاضطراب الطائفى ، فحين ينعدم ولاء المواطن لفكر سياسى واضح ويختفى تمسكه بأهداف قومية معينة يكون طبيعيا أن يبحث فى ذاته عن عوامل أخرى تميزه عن سواه وتعطيه هوية لا يجدها فى غير الفهم السطحى لدينه بشكل يدفع به الى هوة التعصب الذى لا علاقة له بجوهر الأديان ويشحنه بانفعالات التطرف الذى لا مبرر له ٠

رابعا : ان التعايش بين المسلمين وغير المسلمين فى مصر هو تقليد تاريخى راسخ لقرون طويلة منذ ان جرت اللغة العربية على كل لسان حتى أصبحت هى لغـة الصلوات فى الكنائس كما هى لغة القرآن الكريم ، فأصبحنا جميعا عربا بالانتماء ولنذكر في ذلك تلك الزيارة الشـهيرة للسـياسى المصرى المرموق مكرم عبيد فى عام ١٩٣١ لسوريا ولبنان وفلسـطين اذ تضمنت خطبه فى مدن بيروت ودمشق وشتورا والقدس وعكا وحيفا فكرا عربيا مستنيرا ورؤية قومية صافية حيث أوضح بأسلوبه المتميز ان مفهوم الفرعونية فى مصر لا يتعارض مع عروبة مسلميها وأقباطها على السواء ، وهو أيضا صاحب المقال الشهير « المصريون عرب » الذى نشرته مجلة الهـلال فى ابريل ١٩٣٩ والذى اسـتخدم فيه تعبير (الجامعـة العربية) قبل قيامها بعدة سنوات ٠

خامسا : ان الدين الاسلامى الحنيف قد قدم ضمانات مؤكدة لحقوق الانســان اختص فيهـا غـير المسلمين من أهل الكتـاب

بكل ما يؤمن حرية عقيدتهم ويكفل لهم المساواة القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالمسلمين ويدعو الى التآخي والتعايش بينهم فالاسلام يدعو الى الوحدة وينبذ التفرقة وهى أمور أجمعت عليها الأديان السماوية ، ودعا اليها أصحاب الرسالات الكبرى ٠

هذه أمور يجب أن نعمق الاحساس بها ونثبت جذورها لدى الأجيال القادمة ، ولا عجب فلقد امتزجت دماؤنا فى ميادين القتال ، وتوحدت أمالنا فى الحياة ، وتجاورت قبورنا بعد الموت ٠

ظواهر وفدت على مصر(*)

(*) الأهرام ٦ ابريل ١٩٨٥ .

تقدم كاتب هذا المقال ـ فى نفس الفترة ـ بمذكرة موقعة منه ومن المرحوم الأستاذ ميريت غالى ، الذى كان وزيرا قبل الثورة وبعدها ، وعضو مجلس الشورى السابق ، للسيد وزير الداخلية يطلبان فيها من سيادته استخدام صلاحياته للأمر باتخاذ اللازم لرفع الملصقات والرموز الدينية من السيارات بكافة أنواعها وقد تم ذلك بالفعل خلال يومين فقط وفى ظل روح عالية من التسامح الدينى والوحدة الوطنية ، ولكن الملاحظ فى الشهور الأخيرة (١٩٩٣) أن بعض هذه الملصقات قد بدأت تعود الى مكانها فى عدد من السيارات وهو ما يحتاج الى مواجهة مبكرة .

ان المتابع للحياة فى مصر عبر العقود الثلاثة الأخيرة سوف يلحظ تحولات واضحة واختلافات ملموسة فى عديد من مظاهر تلك الحياة اليومية ، على نحو يمكن معه قراءة الكثير من عناصر ذلك التحول واستخراج دلالات ذلك الاختلاف ٠٠ ولقد لفتت الأنظار فى الأعوام الأخيرة عموما ــ وفى الشهور الأخيرة خصوصا ــ ظواهر تستحق البحث وتغرى بالتفكير ، اذ يكفى أن تنظر الى طوابير السيارات فى شوارع العاصمة وغيرها من المدن لترى زجاج تلك السيارات يحفل بالملصقات الدينية بشكل لافت اذ تجد السيارات المملوكة للمصريين الأقباط قد رصعت نوافذها بصورة السيدة العذراء والسيد المسيح وعدد من القديسين وان كان أكثرها انتشارا صورة البابا كيرلس السادس وهو على كل حال رجل دين ناسك يجمع المصريون ــ مسلمين وأقباط ــ على زهده وتقواه ٠٠ أما السيارات المملوكة للمصريين المسلمين فلقد عرفت مؤخرا ملصقا شائعا يحمل « الشهادتين » وقد كان انتشاره بسرعة وحماس واضحين ٠٠

تلك هى احدى الظواهر الوافدة ، فاذا أخذناها فى اطار التدين عموما ــ والمصريون شعب متدين ــ فذلك أمر طبيعى ولا غبار عليه ، ولكن وضعها فى سياق التاريخ السياسى الحديث لمصر يقدم قراءة مختلفة تماما عن ذلك :

أولا : ان مصر الاسلامية عرفت من الاسلام أصوله الحقيقية وتميزت الدعوة على ترابها بالنقاء والصفاء والخلو من بدع التعصب والتشنجات الدخلية على الاسلام ، فلم يتمزق مسلمو مصر

بين الفرق الاسلامية أو الطوائف الدينية ، ويكفى أن نتأمل الفلاح المصرى وهو يؤدى صلواته ـ عبر القرون ـ على ضفاف النيل وروافده وقنواته وأحيانا فى حقله ببساطة تقترب به من فطرة الاسلام وروحه التى لا تعرف المباهاة ولا تميل الى الدعاية بالتدين ٠

ثانيا : لقد كان من أسباب اعتزاز المصريين تاريخيا ـ مسلمين وأقباط ـ بالكنيسة المصرية أنها كنيسة تتميز بالثراء الروحي دون الثراء المادى ، وتنصرف اهتماماتها عبر القرون الى الشئون الدينية والثقافية والتعليمية وعرفها العالم كنيسة وطنية تميل الى التحفظ وتقترب من أصول المسيحية في الزهد والتواضع حتى أن الدير القبطى كان ولا يزال نموذجا لصرامة الحياة الروحية وخلوها من نزق الماديات ٠

ثالثا : ان التوزيع السكانى للمصريين تاريخيا لم يكن من بين عوامله الدين أو المذهب فلا توجد احياء لأصحاب ديانة بعينها مثل ما حدث في دول أخرى ، كما لا تتميز مناطق بأغلبية سكانية من احدى الأقليات ، تلك حقيقة يعرفها العالم عن مصر التى يصعب فيها التمييز بين المسلم وغير المسلم سواء بالمظهر أو أسلوب الحياة أو نمط التقاليد حتى أن ـ كرومر الاستعمارى العتيد ـ قد اعترف بهذه الحقيقة ، فاذا كان الآخرون عاجزين عن التمييز بين المصريين بحكم عقائدهم فان مثل هذه الملصقات تمثل خروجا على ذلك التقليد العظيم الذى أفرزه التاريخ الاجتماعى لمصر وكأننا نشير الى الناس بأديانهم ونقدم ـ بالسيارات ـ فرزا غريبا للمصريين اعتمادا على معتقداتهم الروحية وتلك فى ظنى ردة جديدة تدخل فى اطار انتكاسات كثيرة عبرت الى اجواء هذا البلد العريق فى تراثه الحضارى وقيمه الروحية وتقاليده الاجتماعية ٠

رابعا : ان الفارق كبير بين التدين الحقيقى وما نراه من مظاهر جديدة فى حياتنا المصرية على امتداد السنوات الأخيرة ، ان التدين ما لم ينعكس على المعاملات بين الناس ويترك بصماته المؤثرة فى سلوكهم فانه بغير جدال تدين ناقص ، فلست أعتقد أنه مسلم حقيقى أو مسيحى صادق ذلك الذى يتظاهر بالتدين ويستعرض شعارات التعبد بمناسبة وبغير مناسبة فالديانات كلها دعوة سامية جوهرها العمل على التعايش السلمى مع الآخرين فى اطار قواعد وأخلاقيات لا يكاد يكون هناك خلاف حولها ، فلست أجد تفسيرا لتصرف تاجر جشع أو رجل أعمال مستغل فى وقت قد يطلق فيه لحيته تدينا أو يداعب فى المجتمعات سبحته تظاهرا ، ان التدين علاقة بين المخلوق وخالقه تتجاوز مثل هذه الشكليات وتتحول الى ايمان عميق يعطى صاحبه دفعة قوية فى اتجاه الأمانة فى العمل والصدق مع الغير وحسن معاملته للناس مهما كانت معتقداتهم ٠

خامسا : ان المقارنة بين صورة المجتمع المصرى منذ خمسين عاما وما آلت اليه حاليا توضح أن هناك تطورا محسوسا فى اتجاهات عديدة ٠ والتطور سنة الحياة وناموس الوجود ولكن أى تطور هو ؟ وفى أى الاتجاهات يمضى ؟ اننى أشعر أحيانا أن المجتمع المصرى منذ سنوات مضت كان أكثر تسامحا فى مواجهة الأفكار المختلفة ، وانه كانت لديه رحابة صدر فى تذوق الجديد فى الفكر أو الأدب أو الفن على الرغم من الغياب النسبى للديمقراطية فى سنوات مضت ٠٠ بينما وفدت حديثا على مصر وغيرها من أجزاء كثيرة فى الوطن العربى موجات من الارهاب الفكرى والمتاجرة باسم الدين وتخويف الناس بأسلحة المصادرة على الفكر فى اطار محاولات متصلة لالغاء العقل ، وكأن تفسير الأديان حكر على فئة ، وكأن الايمان قد وقر فى قلوب من يعلنون عنه دون غيرهم من أصحاب الايمان الصادق والصامت فى كثير من الأحيان حتى انه ليخيل الينا

أن ذلك المجتمع المصرى يكاد يرفض صيغة التحديث الاجتماعى التى مارسها لقرنين من الزمان على الأقل متجها فى نمط حياة أفراده الى صيغة أخرى أقرب ما تكون الى حياة المجتمعات العربية الأخرى بمظاهرها المختلفة حتى فى الملبس وبعض السلوكيات اليومية ٠

★★★

ان ما أريد ابرازه فى هذا المقال الموجز هو أن أتساءل بصوت مسموع ألم يكن لدى مصر ـ ذلك البلد العريق فى تاريخه المؤثر فى منطقته ـ شخصية متميزة تحفل بكل مظاهر الثراء فى الفكر والعقيدة والأخلاق ؟ هكذا تبدو شخصيتها عبر القرون برغم انتكاسات مرت بها ، وكبوات اعترضت مسارها ، الا أنها بقيت دوما أرض التسامح ، وملاذ أصحاب الفكر ، وملتقى عشاق الحرية ، فماذا جرى لكى تتحول الأمور فيها على هذا النحو ؟ هل يستطيع أن يستقبل مجتمعنا الآن بعض ما كتبه الشيخ على عبد الرازق أو الدكتور طه حسين أو سلامة موسى منذ أكثر من ستين عاما ؟ لا أظن ذلك ٠٠ فحتى كتاب ألف ليلة وليلة وهو تراث أدبى خالد عرف به الأدب العربى بين آداب الدنيا ندعو اليوم لمصادرته واحراقه ٠٠ ان شيئا غريبا يحدث ٠٠ ان يدا خفية تعبث بتراث هذا الشعب وتحاول طمس هويته وتغيير شخصيته ٠٠

ان دولا كثيرة فى الشرق والغرب عرفت بتدين شعوبها اذ يمارس الدين تأثيرا كبيرا فى تشكيل القيم الاجتماعية ٠٠ ويمثل مصدرا رئيسيا فى الخلفية الثقافية والأخلاقية لتلك الشعوب ، ولكن الذى حدث فى معظم تلك الحالات أن التدين انعكس على أخلاق تلك الشعوب ، وظهرت آثار التعاليم الدينية فى السلوكيات اليومية للناس ، فاختفى السطو على المال العام وظهر بديلا له شعور عميق

بالانتماء للوطن وحرص شديد على مصــالحه ، كما تميزت تلك الشعوب المتدينة بقدر كبير من الاحســاس بالمسئولية والجدية فى العمل ، والبعد عن التسيب واللامبالاة ، وبذلك يصبح الدين حافزا الى الأفضل ، ودافعا نحو القيم الايجابية وطاردا للقيم السلبية فى المجتمعات التى عرفت التدين الصحيح وادركت المفهــوم الحقيقى للأديان •

ونحن فى مصر أشد ما نكون حاجة الى الاقتراب من جوهر العقيدة الدينية والاحساس العميق بروح الرسالات السماوية ، حتى يتحول الايمان الى سلوك فى حياتنا ويصبح التدين حقيقة موضوعية وليس مظاهر شكلية •• ولا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن الاسلام دين يدعو صراحة وبوضوح الى التفكير والتدبر ، وانه دين يدعو الى ســيادة العقل ، ويرفض التعصب والتشنج وطمس الحقائق ومحاولات تعتيم الرؤية ، كما أن المســيحية دين يدعو الى المحبة ويحبذ التسامح ويرفض العنف •

ان التدين الحقيقى أمر مرغوب بل مطلوب لشعوب تخطو نحو الغد الأفضل ، خصوصا اذا اعترفنا أن التدين ليس تظاهرا أو ادعاء كما أنه لا يكون باللافتات أو الملصقات •

وسوف نظل نرقب ذلك اليوم الذى يحتل فيه علم مصر مكانا بارزا بين كل الملصقات على كل السيارات •• رمزا لوطن نتعلق به جميعا ويزداد تعلقنا به كلما كثرت التحديات أمامه وتعقدت المشكلات فيه ، لأنه وطن عريق تبدو فيه ارادة الحياة امتدادا لارادة الله ••

صعيد مصر .. منبع التاريخ ومهد الحضارة(*)

(*) من محاضرة عامة للمؤلف بنادى أعضاء هيئة تدريس جامعة اسيوط ـ مارس ١٩٨٨ .

ها هى مصر تسعى جاهدة لاستعادة دورها الطبيعى الطليعى فى المنطقة العربية على الصعيدين السياسى والثقافى ، فالأشقاء العرب يعودون الى مصر تباعا ، كما تعود جامعة الدول العربية الى مقرها الدائم بالقاهرة التى كانت دوما عاصمة كل العرب ومدينة الأزهر الشريف لكل المسلمين ٠٠ أما دور مصر الثقافى وهو الذى لم تفقده يوما ٠٠ ولم ينتزعه غيرها أبدا ٠٠ فهى رائدة الثقافة العربية بلا منازع ٠٠ أليست هى مصر التى شيدت « الأوبرا » الجديدة فى عاصمتها العريقة للمرة الثانية بعد افتتاحها الأول بأكثر من قرن كامل من الزمان (١) ٠٠ فالفن الى جانب الأدب والشعر لقى كل رعاية فى قصور خلفاء المسلمين ومجالس الأمراء والولاة فى مختلف الأمصار والأقطار فالاسلام لا يعادى الفن الراقى ٠٠ الذى يسمو بالروح ويطهر النفس ويوقظ المشاعر الصادقة ٠٠ انها أيضا مصر التى يمثل تاريخها حجر الزاوية فى التطوير البشرى كله وهى الأساس فى البناء الحضارى المتصل بتاريخها العريق وآثارها الخالدة (٢) ٠٠ انها تلك الآثار العظيمة

---

(١) صاح أحد الحاضرين (الله أكبر وتسقط الأوبرا !) معبرا عن استيائه من منطلق عدائه للفن عموما اذ يتصور أنه حرام أو على الأقل مكروه فى الاسلام ٠

(٢) قال أحد الحاضرين عند هذه الفقرة « الى متى نظل نتحدث دوما عن الحضارة الفرعونية وحدها ونباهى بتماثيل الأقصر التى هى أصنام تاريخية !؟ » ٠

التي وقف أمامها الولاة العرب والحكام المسلمون منذ وصول الفاتح « عمرو بن العاص » بكل الاكبار والتقدير والاحترام واعتبروها رموزا حضارية رائعة تقع فوق أرض طيبة تستقبل الاسلام الحنيف بقلب مفتوح ونفس راضية وفهم عميق لروح الدين السمحاء ·· انها مصر التى ننتمي جميعا لها ونعتز بأنها الوطن والملاذ ·· بأنها المولد والحياة والمستقر الأخير ··

وهذه مدينتكم ذات التاريخ الطويل والاسهامات المعروفة فى الحياة السياسية والتطور الاجتماعى للوطن وها هي جامعتها الناهضة تمارس دورا ملموسا فى البحث العلمي والأداء التعليمى ·· وها أنتم أعضاء هيئة تدريس هذه الجامعة تعيشون أحداث الوطن وتشاركون فى كل ما يجرى على أرضه أو خارجه ، ويكون لقاء الليلة محاولة لدراسة المشكلات التى تعترض حياتكم واستطلاع مواقفكم من كافة القضايا المحيطة بكم ·· فالجامعة لها حرمتها ·· وللعلم قدسيته ·· ولا يجب أن ينال من ذلك تيار فكرى أو اتجاه سياسي (٣) ولا أتصور أن يكون العنف أسلوبا للتعامل داخل الجامعة مهما تعددت الرؤى أو تباينت الأفكار ·· كذلك فان حمل السلاح ـ مهما كان نوعه ـ داخل حرمها هو اعتداء صريح عليها ونيل مباشر من مكانتها وهو أسلوب لا تعرفه الجامعات فى الدول المتقدمة وليس له سوابق فى تاريخنا العلمي والتعليمى على امتداد القرن الأخير كله ·· وليس من شك أن العنف يولد العنف وأن أزمة

(٣) صاح أحد الحاضرين « هل يرضيك ، وانت قد درست فى جامعة لندن · أن يمارس الحرس الجامعي دوره الذى يقوم به حاليا فى جامعاتنا وهو أمر لا وجود له فى جامعات العالم المتقدم ؟ » ·

الثقة حين تتواجد فان كل شيء يجرى تفسيره فى جانبه السلبى وتنعدم روح التعاون وتثور المخاوف المتبادلة ·· لذلك فانني أدعوكم الى الوعى بهذه الحقائق وتدارك المخاطر بهذا الوطن المستهدف لأسباب كثيرة لا تخفى عليكم ·· ومن حق المواطن أن يكون معارضا بأسلوب متحضر لا يخسر به ولكن يربح ، ويضيف به الى رصيده الوطنى والشخصى ·· ونحن لا نختلف فى أن للرفض أسبابه ودوافعه وللمعارضة مبرراتها وخلفياتها ·· ولكن يبقى التأكيد بأن اصلاح المسار الاقتصادى والارتقاء بالخدمات سوف يكون لهما أثر كبير فى مواجهة هذه الظواهر (٤) ·· ان الاسلام دين الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ودين التسامح والتكافل والمودة ·· وفى هذه المدينة التى تعايش فيها المسلمون والمسيحيون لعشرات القرون نموذج فريد وتلقائى للوحدة الوطنية ، ولعل أحداث ثورة ١٩١٩ ودور « أسيوط » فيها خير شاهد على متانة عراها وصلابة عودها ··

·· ويقول بعضكم أن صعيد مصر كان مهملا فى فترات معينة من تاريخنا الحديث وأنه لم يأخذ ما يستحقه من الاهتمام والرعاية ·· وأقول لكم انها « مصر العليا » التى صدرت للوادى والدلتا أعظم القيادات السياسية وأبرز الرموز الفكرية عبر تاريخنا الطويل وهى

---

(٤) تساءل أحد الحاضرين « مدرس مساعد » هل يمكن لكم اعداد ميزانية منزلى الشهرية فى ظل ظروف تكاليف المعيشة الحالية حيث أن صافى مرتبى دون المائتين والخمسين جنيها مصريا ولدى أسرة قوامها زوجة وثلاثة أطفال ؟ وهو يوضح بذلك أن للمشكلة بعدا اقتصاديا أساسيا ··

مدخل الحضارة ومعبر الأفكار التى تجرى مع النيل لتصب فى العقل المصرى المتفتح بطبيعته ، الرحب بأصالته ..

.. ولقد شاهدت فى رحلة القطار اليكم مدن الصعيد ذات الطابع الأصيل تطل على ضفاف النهر الخالد يفوح منها عبق التاريخ ويصدر عنها ايقاع الحضارة .. فليكن الله مع وطننا العظيم بتراثه العريق وحاضره الناهض ومستقبله المشرق .

الدين والسياسة فى الشرق الأوسط(*)

(*) من محاضرة عامة للمؤلف بجامعة الاسكندرية فى ٨ مارس ١٩٩٠ .

ان الموقع المتميز والمكانة المؤثرة لمنطقة الشرق الأوسط على امتداد تاريخ الانسانية ، حيث كانت دائما معبر التجارة وطريق الغزو مما جعلها همزة الوصل وحلقة الربط بين الشرق فى أحلامه وفلسفاته وآماله والغرب بعلومه وأفكاره وتطلعاته ، وكان طبيعيا أن تكون هذه المنطقة مركز اشعاع حضارى مؤثر خاصة وقد نزلت على أرضها الديانات ، وشهدت مختلف المواجهات الساخنة سواء فى الحروب والغزوات أو الأفكار والثقافات .

فهى بلا شك ذات موقع مؤثر فى تاريخ المكان ومؤثر أيضا فى جغرافية الزمان ، وهذا الامتزاج بين المحور الرأسى للزمان والمحور الأفقى للمكان يصنعان الوجه الحقيقى لأى منطقة فى العالم .. ومن خلال التطبيق الحرفى لهذا المعنى فان منطقة الشرق الأوسط من أكثر المناطق تأثيرا فى ماضى التاريخ وحاضره وربما فى مستقبله .

ونحن نتلفت من موقعنا بمدينة الاسكندرية وعلى ضفاف البحر المتوسط الى الماضى السحيق حيث شهد التاريخ امتدادا بين الحضارات الثلاث الكبرى فالبحر الأبيض المتوسط بحيرة آسيوية افريقية أوروبية .. اذ تحده آسيا شرقا وافريقيا جنوبا وأوروبا شمالا .. فظهرت حضارات كبرى ثلاث فى هذه المنطقة من العالم وهى تحديدا : الحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفرعونية .

يشهد الجميع أن الحضارة الفرعونية المصرية هى أسبق هذه الحضارات وأعظمها وأكثرها تأثيرا حيث عرف المصريون القدماء قبل غيرهم فكرة تدوين التاريخ وتسجيل الحضارة ٠

واذا كانت الحضارة الاغريقية حضارة سياسية بالدرجة الأولى ومعنية بالمشاركة السياسية وبطبيعة الديمقراطية فى « دولة المدينة »، واذا كانت الحضارة الرومانية قد اهتمت بالآداب والفنون والتشييد والبناء ٠٠ وبالعمارة والزخرفة ، فان الحضارة المصرية القديمة كانت حضارة ذات فلسفة خاصة حيث سيطر على الناس لغز الحياة والموت والأبدية « والحياة الثانية » ٠٠ وسيطر على عقول أجدادنا منذ آلاف السنين ذلك السؤال الملح دائما ٠٠ كيف بدأنا ؟! وكيف ننتهى ؟! ووقر فى الأذهان فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ المكتوب للانسانية أن هناك حياة أخرى فشيدوا لها المقابر وبنوا من أجلها الأهرامات ٠٠ فكانت الحضارة المصرية هى الحضارة المعنية بالحياة الأخرى وبالاجابة عن اللغز التاريخى الخالد عن حقيقة الوجود ٠٠ وكان هذا أمرا معروفا عن مصر فى تاريخ البشرية كلها ٠٠ لهذا كان الدين وطقوسه هو المدخل الطبيعى لكل من دخل مصر من الغزاة وقد ذكرنا كيف أن الاسكندر الأكبر حين اتجه بأحلامه وآماله الى مصر ليبدأ منها نقطة انطلاق الى الامبراطورية الشرقية الكبرى عمد أول ما عمد الى معبد آمون فى سيوة زائرا ومباركا كأنه كان يتقرب فى تلك الفترة السحيقة من تاريخ مصر الى المصريين ، بل ومن العجب أن نابليون بونابرت بعد ذلك بآلاف السنين حين قدم الى مصر وفى ذهنه أحلام الامبراطورية الفرنسية الكبرى أكد للمصريين بأنه يحترم الاسلام ورسوله ، وانه جاء ليخلصهم من المماليك بل استهل منشوره المعروف « بسم الله الرحمن الرحيم » ٠٠ وهكذا أدرك كل من أراد

أن يتعامل مع مصر أن هذا الشعب معنى بالرسالات السماوية ومحب لهـا ٠

ان مصر وهي تمثل مركز الثقل الطبيعي في المنطقة تقـدم النموذج الأوضـح لطبيعة العـلاقة الوثيقة الأساسـية بين الدين والسياسة ، فالتلازم بين الدين والسياسة هو فى حقيقته تلازم منطقي ، فاذا كان الدين هو الذى يحدد العلاقة بين المخلوق والخالق ٠٠ واذا كانت السياسة هي التى تحدد العلاقة بين الأفراد والسلطة أو بين الشعب والنخبة الحاكمة ، فقد كان طبيعيا أن يكون التداخل واضحا خصوصا اذا كان الدين هو الاسلام ، فلا شك أن الشريعة الاسلامية تتميز بانها ثرية بكل ما يهم الانسان فى دينه ودنياه منذ مولده وحتى مماته مرورا بالزواج والطلاق والميراث ، وحتى آداب الحديث وأساليب المخاطبة والدعوة ، ولذلك كان طبيعيا أن يكون الاسلام دينا ودنيا ، بل ان الاسلام يكاد يكون الدين الوحيد الذى جعل التفكير فريضة وترك باب الاجتهاد مفتوحا ، ولم يجعل التحدث بالدين أو الدعوة اليه مقصورا على فئة بعينها ، فلا رهبانية فى الاسلام بل ان الاسلام لكل المسلمين ٠٠ وفى مصر بالذات يبدو طابع الاسلام مبسطا وواضحا عن كل الدول الاسلامية الأخرى ، فمصر فى تاريخها الطويل لم تعرف الفرق الاسلامية ، ولم تعرف ذلك التشرذم فى مجموعات نتيجة اختلافات مذهبية معينة بل ان المذهب الشيعى حين اتخذ من الأزهر الشريف قلعته بوصول الفاطميين الى مصر واستمر على ضفاف النيل قرابة قرنين من الزمان ولكنه زال بزوال تلك الدولة ولم يبق فى مصر شيعى واحد ، لأن مصر تختار الأبسط والأوضح وتميل بفطرتها السمحاء الى تقبل الرسالات والأفكار بشكل مباشر لا تعرف التعتيم ولا تلجأ الى الوساطة ، لذلك كان طبيعيا أن يكون صفاء الاسلام ونقاؤه وسماحته مرتبطين

بمصر ، ولعلنا نستعيد في هدوء صورة الفلاح المصرى يركع فى خشوع على ضفاف نهر النيل ٠٠ يصلي وحده في علاقة سمحاء وشامخة ٠٠ علاقة الفرد بربه دون واسطة وبفطرة سليمة ونية طيبة ونقاء كامل ٠

نؤكد أن سماحة الاسلام تنطلق من مصر ، فهى الحافظة للتراث والثقافة الاسلامية وهى نموذج واضح للمزج بين الدين والسياسة اذ أنها عربية الثقافة مسلمة الدين أفريقية الموقع ، وهى المنار والأمل فى منطقتها ٠

ان الاسلام دين سياسي عرف الشورى والخلافة ، وحتى اختيار الخليفة الأول بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خضع لاجراءات لا يختلف اثنان على أنها نمط الشورى والديمقراطية بل أكثر من ذلك أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى خاض حروبا من أجل الدعوة وأجرى أيضا مفاوضات من أجل الدعوة ٠٠ فكان دين الحرب حين تفرض عليه ، ودين السلام حين تبدو الدعوة صادقة أيضا اليه ٠

ولذلك فالاسلام دين سياسي تعامل دائما مع المتغيرات فى العالم اقتنع بالثوابت وتعايش سلبا وايجابا معها فلم تكن دعوة الاسلام الحنيف دعوة صماء بل تجاوبت مع كل الظروف وعايشتها، ومن منا لا يذكر تعطيل الحدود فى عام الرمادة استجابة للظروف الطارئة ، مثل هذه الأمور تدعونا الى التدبر والتأمل لأن الاسلام هو الذى جعل من مصادره : القياس والاجتهاد وترك الباب مفتوحا أمام المجتهدين ليوائموا بين الدين والدنيا ومتغيراتها الزمنية والمكانية ، لذلك سوف نجد دائما أن الاسلام دون غيره من الديانات قد جعل ما أجمعت عليه الأمة هو الصحيح فالأمة لا تجمع على ضلال ولا تجبر على موقف ٠

أقول ذلك لأولئك الذين يقفون أمام النص وينكرون من تاريخنا الاسلامى تجارب تاريخه الطويل ، ولست بذلك داعية للتفريط أو المرونة ، بل ان المسلم الحقيقى فى رأيى هو الذى يؤمن بكتابه وسنة نبيه ويحترم الشريعة الغراء ، ولست أجد مسلما حقيقيا يقف دون تطبيق الشريعة ، ولكن لكل مقام مقام ، ولكل زمان ظروفه وملابساته •

ولسنا نعيش فى جزيرة منعزلة عما حولنا ولا نستطيع أن نناطح الصخر وحدنا ، ولا نتصور أننا نستطيع أن نضع صورة جديدة فى أعين غير المسلمين والا نكون بذلك واهمين لأن الاسلام حدد هذه الصورة منذ فجر ظهوره وجعل الدعوة اليه بالحكمة والموعظة الحسنة وجعل البشاشة والترحاب هى المقدمة الطبيعية للمسلم وليس العنف والاستعلاء ، كما أن الاسلام هو الذى يرفض بفطرته ديكتاتورية الجماعة وهو أيضا الذى يدعو الى التسامح مع غير أهل الملة ، وهو أيضا الذى يحترم أهل الكتاب ويحدد أسلوب التعامل معهم •

واذا كان هذا هو الاسلام فان المشكلة تبدو فى حال المسلمين أنفسهم •• نحن مسئولون عن هذه الصورة التى تبدو للعالم الآن مشوهة •• فنحن الذين ربطنا طواعية وبارادة وبنية سيئة بين المسلمين وبين التطرف والارهاب والتخلف ، على الرغم من أن الاسلام يكاد يقدم ضمانات ضد التطرف والارهاب والتخلف •

اننى أكاد ألمس أن هناك حملة حقيقية ضد الاسلام يقوم بها المسلمون أنفسهم ، بل ان هناك محاولة متعمدة لتشويه وجه الاسلام •

ان صورة الاسلام فى أعين غير المسلمين فى العالم تبدو أبعد ما تكون عن الاسلام نفسه وعن روحه والمسئول عنها هو نحن الذين

قبلنا التناحر والتنابذ والعنف والتطرف ، مع أن الدين يدعو الى التسـامح والحكمة والرحمة والبر بالآخرين ٠٠ لذلك يبدو أن الحديث عن الدين والسياسة حديث متعمد له أهميته على اعتبار أن الدعوة هي مصالحة حقيقية بين الشريعة السمحاء وبين الواقع ، وهذه من لزوميات الفكر الاسلامى نفسه ٠

دور الامام حسن البنا

ودعوته السـمحة

أننا فى مصر نريد التقدم نحو الاسلام الحقيقى وليس العودة الى الوراء لأن التقدم بالاسلام هو استيعاب لروح العصر ومعايشة للظروف ٠٠ ان مصر هى أول دولة اسلامية نادت بتسييس الاسلام باعتباره دينا ودنيا وذلك على يد الامام الشهيد حسن البنا الذى خرج بدعوته الى الاخوان المسلمين من مدينة الاسماعيلية عام ١٩٢٨ ٠

ولم يكن يتصور أن هذه الدعوة سوف تلعب هذا الدور التاريخى الهام فى منطقة الشرق الأوسط لأن ذلك الداعية السمح الذى كان ينبذ العنف ويرفض الارهاب قد خرج بدعوة جماعة الاخوان المسلمين الى المصريين ، لكى تكون احدى الحركات الدينية والسياسية المؤثرة فى تاريخ مصر الحديث ، ولم تقتصر الدعوة عند هذا الحد بل تجاوزتها الى أرجاء العالم الاسلامى فكانت دعوته هى دعوة الى تنقية الحياة السياسية مما شـابها ، وكانت فى جوهرها دعوة عاقلـة متسامحة ، دعوة قبلها الناس ورحبوا بها حتى من غير المسلمين ، وكان من أصدقائه ومريديه عدد كبير من الأقباط لأن الناس ينجذبون

بطبعهم الى السماحة وينبذون الجهامة ويقبلون على الحوار الطيب .. أما العنف والارهاب والازدراء وتكفير النـاس والمجتمع فهى فى حقيقتها أمور دخيلة لم يعرفها مجتمعنا الا فى السنوات الأخيرة ..

هناك نقطة فى غاية الأهمية وهى أن فى العالم الاسلامى أقليات مؤثرة وذات ارتباطات قوية ويمكن أن تستخدم هذه الأقليات من خلال الاعلام والدعاية الخارجية لتحريك الصراعات على أرض الوطن الواحد .. وأنه لحسن الحظ أن الأقلية الدينية فى مصر من الاخوة الاقباط هم مصريون دما ولحما وارتباطهم بالأرض أمر تاريخى لا مراء فيه ، كما أن مواقفهم الوطنية أمام الصليبيين والفرنسيين من الغزاة والاحتلال البريطانى تؤكد على أنهم عنصر واحد فى نسيج هذه الأمة، ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار انه قد نبتت فى السنوات الأخيرة بعض المخاوف لدى المسلمين والاقباط على حد سواء .. نغمة من التطرف والقلق .. بل جرى الربط بين الاسلام المعتدل الصحيح للأسف الشديد والتطرف والارهاب بل اننى أزعم أن التطرف والارهاب قد صادرا على تدين الشعب وحرما المتدين المصرى المعروف بارتباطه الشديد بربه من ممارسة تدينه ومواصلة تقواه لقد أصبح هناك نوع من الضجيج السياسى الذى يرفع فيه الدين مظلة فى وجه الآخرين ، وهذا ولا شك يصادر على التفكير والمستقبل .

والحقيقة أن لمشكلة التطرف بعدا اقتصاديا لا يجب التقليل من شأنه لأن الاحساس بالتناقضات فى المجتمع هو ذلك القدر المذهل من المعاناة التى يتعرض لها الشباب مع البطالة .. كل هذه الأمور يجب ان نضع أيدينا عليها بصراحة لأنها أحد العوامل الدافعة التى أدت الى ما يجرى على تلك الصورة الشوهاء . لذلك

فاننى أقول بكل صراحة ان مصر المستهدفة يجب ان تضع قدميها دائما على أرض صلبة بكثير من الأناة والحذر وألا تتقدم خطوات غير مدروسة منعا لأية عواقب وخيمة ٠

حقيقة ان هناك الاختلاف بين مفهوم الخلافة الاسلامية وتطبيق الشريعة الاسلامية وقد أسهم فى ذلك عدة عوامل هامة منها سقوط الخلافة العثمانية على يد « كمال أتاتورك » فى بداية العشرينات حيث بدت مصر هى المرشحة للخلافة الاسلامية فى العالم كله وظهرت جمعيات حتى فى أوربا بين الأقليات المسلمة وفى الهند وباكستان تدعو الى احياء الخلافة فى مصر ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل لقد كان هناك من زين لملوك الأسرة العلوية ٠٠ فؤاد الأول وفاروق الأول انهما جديران بامامة المسلمين وبخلافة آل عثمان ٠٠ أليس هما أحفاد محمد على ٠٠ أليس هما حكام أكبر دولة ذات تأثير فى العالم العربى والاسلامى وقد لعب الأزهر الشريف وشيوخه دورا فى ذلك ولعله لا يزال ماثلا فى الأذهان حادث انشاص المعروف حين تقدم فاروق ليؤم الحكـام العرب فى صـلاة الجمعة فى منتصف الاربعينات وذلك تأكيدا للأذهان على ان الخلافة الاسلامية كان يجب أن تكون فى مصر أكبر الدول تأثيرا فى الدعوة الاسلامية وفى الثقافة العربية ٠

أما الأمر الثـانى فهو ذلك الذى حـدث منذ ظهـور الثورة الشيعية فى ايران وأستطيع أن أؤكد أن قدرا كبيرا من معلوماتنا عن الثورة الاسلامية فى ايران غير دقيق لأن مصادره جاءت من خلال الاعلام الغربى وحده فى الغالب ولكن اذا تلمسنا المصادر الحقيقية فأن الثورة فى ايران حين بدأت بدأ العالم كله ينظر اليها بحذر وترقب خصوصا أنها جاءت بعد مظالم حكم الشاه ، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن وتفرغت الثورة للانتقام ومعاداة الآخرين ٠

ومن منا لا يريد نظاما اسلاميا ضد نظام الشاه المهترىء « والسفاك » والظلم والهوان • ولكن الرواية لم تتم فصولا كما ان الفرحة لم تكتمل طويلا ولقد انصرف الأئمة فى ايران الى محاربة الماضى والثأر دون النظر الى المستقبل ودون الوعى بالحاضر بل دخلوا فى حرب طاحنة مع دولة جارة مسلمة امتدت لأكثر من ثمان سنوات تدل كل الشواهد اليوم على انها كانت حربا مدبرة هدفها احراق العالم الاسلامى واشعال الفتنة فى طرفه ووسطه ، وانتهى الأئمة فى ايران ومن ورائهم عناصر تؤيد ـ حبا أو كرها ـ ما يفعلون وكانت النتيجة ديكتاتورية وقهر واتهامات بلا حدود كأن يقال ان التهمة الموجهة الى شخص ما هى الفساد فى الأرض ثم يعدم فى ساعات دون ضمانات أو ضوابط !! •

أين ذلك من الاسلام ؟! •• اننى أدعوكم الى تأمل السنوات الأولى من تاريخ الاسلام فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين سوف تجدون أن التسامح والرحابة والتهلل والبشاشة كانت هى السمات الطبيعية للآباء العظـام فى الدعوة الاسلامية ، ولم تكن هى أبدا الديكتاتورية أو القهر أو العنف أو التسلط أو العسف أو الجبروت •• ان هناك مؤامرات تحاك ضد روح الشريعة السمحاء حتى تبدو شوهاء فى عيون غير المسلمين ••

وقد يقول قائل ان للظروف الاقتصادية دخلا ، وقد يكون هذا صحيحا •• وقد يقول آخر : ان التطرف قد خرج من رحم المعاناة التى عرفها التيار الاسلامى المعتدل فى الخمسينات والستينات ويعنون بذلك أن مواجهة عبد الناصر مرتين لجماعة الاخوان المسلمين

فى عامى ١٩٥٤ و ١٩٦٥ قد تركت ظلالا قاتمة وجلبت العنف ودعت هذه القوى ان تسلك ما سلكته ، ولكن مصر يجب ان تكون بلدا منزوع السلاح من الطائفية والتطرف ‥ بشخصيتها الحضارية التى هى حضارة المستقبل ، فالمزاج المصرى بتاريخه مسالم بناء وليس عنيفا هداما ٠

نداء الى الأغلبية الصامتة

اننى أفكر بصوت عال وأدعو الأغلبية الصامتة فى مصر الى مواجهة حاسمة ازاء كل ما يحدث ‥ فيجب ان تكون هذه الأغلبية الصامتة التى لم تدخل حتى اليوم فى حساب العمل السياسى ‥ يجب ان تكون واعية بما يجرى من حولها على الساحة وان تنبذ التطرف لأنه عبث بمقدرات دولة فى ظروف فى غاية الحساسية ‥ بلد يبنى فى ظل ظروف معقدة ‥ قد تكون المشكلة الأساسية لهذا النظام أنه لا يرد كل يوم على ما يجب أن يرد عليه لأن هناك اعتقادا بأن السماح بهامش كبير من حرية التعبير سوف يخلق بالطبيعة وبعد فترة معينة من يدافعون عن السلام والاستقرار ، وانه يجب ألا تكون الحكومة هى الوصية الدائمة على مسيرة الحياة ، ولقد بدأ ذلك يؤتى ثماره بالفعل ، فلقد شاهدنا فى كثير من محاولات الارهاب والتطرف أن الذى يتصدى لها بكل حسم هم السواد الأعظم من الناس الذين رفضوا باصرار هذه الأساليب المستهجنة وخافوا على دينهم الحنيف من هذه الصورة الشوهاء ٠

هكذا يبدو التزاوج دائما بين الدين والسياسة فى هذه المنطقة من العالم . ولكن أين نحن مما يجرى من حولنا ؟ .. لا تظنون أن الأمور قد استقرت وأن السلام دائم ؟ ان الارتباط بين الدين والسياسة فى الشرق الأوسط ليس قضية جدلية ولكنه قضية سياسية مسلم بها ومعترف بوجودها .

اننى أدعو دعوة صادقة مخلصة الى ضرورة الوعى بما يحاك ضد الاسلام من مخاطر .. وان نقدم الاسلام الصحيح وان تكون هناك مصالحة حقيقية مع واقع حياتنا ، فالاسلام طرح لا يتعارض مع تطور الحياة .

وعلى سبيل المثال فالاقتصاديون يعلمون جيدا أن الاقتصاد قضية متشابكة ، فاذا أفلس بنك فى بلد أثر هذا فى دول أخرى ولكننا رأينا مغامرات اقتصادية باسم الاسلام دفع ثمنها الأرامل واليتامى والفقراء .. ولكم فى توظيف الأموال عبرة يا أولى الألباب .. حدث هذا .. فكيف نسمح بهذه التطبيقات دون دراية أو علم أو بحث ؟

ان مطلب تطبيق الشريعة الاسلامية هو مطلب روحى يهفو اليه المسلمون جميعا ، ولهذا لابد من الاهتمام والدراسة والتروى والتحسب والبحث والدراسة والتفكير حتى يستقيم الأمر ، وتقف الشريعة بشموخها على أرضية صلبة قوية ولنا من التجارب من حولنا ما يؤيد أهمية النهج الهادىء الرصين .



الفتنــة الطائفيــة(*)

(★) من حديث المؤلف أمام ندوة « الفتنة الطائفية » بنقابة الصحفيين في ٦ مايو ١٩٩٠ .

حين وجهت الى الدعوة من نقـــابة الصحفيين للحديث فى موضوع الفتنة الطائفية قبلتها بحماس شاكرا لسببين أولهما أننـا فى دار نقابة أهل القلم وأصـحاب الرأى واننـا حين نتحدث فاننا نتحدث فيمن يؤثـرون فى الرأى العـــام ويقودونه فى كثير من الأحيـــان ٠

والأمر الثانى أننى أدعى أن لى بموضـوع الحديث قدرا من التخصص بحكم دراستى التى ركزتهـــا على موضوع الأقليات فى الحياة السياسية مع دراســة تطبيقية على الأقبـــاط فى مصر ٠٠ للسببين معا أجدنى سعيدا ومتحمسا لهذه الدعوة ٠٠

وتتساءل فى البداية : كيف تواجه مصر وهى أقدم الكيانات السياسية فى المنطقة وربما فى العالم القديم بأسره ، صاحبة أقدم تاريخ مكتوب عرفناه حتى الآن ٠٠ نتســاءل كيف تواجه مصر هذه الموجات من القلق الطائفى أو من الضجيج الدينى بين فترة وفترة ، وأعقد مقارنة سريعة بيننا وبين بلد الطوائف والنحل والملل واللغات والانقسامات ٠٠ ولنأخذ الهند مثالا لذلك ٠٠ التى أتاح عملى فيها فترة من الزمن ان أشـهد الظاهرة وأن أدرك أسـبابها التى تبدو واضــحة لكل ذى عينين ٠٠ وفى الهند مثـلا الصـدام الدائم بين الهندوس وهم أغلبية السكان وغيرهم من الطوائف وفى مقدمتهـم الأقلية الكبرى المسلمون الذين يصل تعدادهم الى ما يزيد على مائة مليون نسمة ٠٠ أقول أن السبب واضح ٠٠ انه ثأر تاريخى ، اذ أن الهندوس يعتقدون أن المسلمين الوافدين مع الدولة المغولية الاسلامية بتأثيراتها فى المجتمع الهندى هم الذين غيروا وجه الحياة وأدوا الى

ذلك الكم الهـائل من الاضطراب والخلل فى التركيبة الهندية على النحو الذى أدى الى التقسيم فى نهاية الأربعينات أى أن هناك ثأرا تاريخيا يدفع الأغلبية للانقضـــاض على الأقلية بين الحين والحين فى محاولة لاستعادة التوازن النفسى الذى يشعرون به من جـــراء أحداث تاريخية معينة ·· اذا كان الأمر كذلك فى بلد كالهند ·· فما الذى يدعونا هنـــا الى أن نواجـه مثـــل هذه الاضطرابات فى مصر ، وليس فى تاريخها وتاريخ نسيج الأمة المصرية ما يثير هذه الحساسيات وليس لدينـــا من الذكريات القوميـــة أو التاريخية ما يدعونا الى الشعور بعداوة مترسبة بين الأغلبية والأقلية ·· بل أن الأمر عندى يبـــدو مختلفا كل الاختلاف ، فالأقليـــة هنـــا أقصدها بمعناها العددى ولا أقصدها بخصائص سياسية أو سمات عرقية معينة ·· فكلنا من أصل واحد وكلنا مررنا بظروف تاريخية واحدة عايشنا تجربة قومية مشتركة ·· ولقد أثبت الأقباط تاريخيا ان ولاءهم لتراب الوطن لا يقـل عن ولاء غيرهم ·· وليس فى هذا دفعا لشبهة تلحق بهم أو دفاعا عن وهم يتصوره البعض ضدهم ولكنه لتأكيد هذا المعنى لديهم ·· أنظر مواقفهم تجاه الغزاة والمحتلين ·· أنظر الى الموقف القبطى حينما رفع الغربيون الصليب شعارا للتدخل فى منطقة الشرق بدعوى حماية المقدســات الدينيــة ·· لنجد أن موقف الأقباط كان جزءا من الموقف العربى الاسلامى ككل ·· ولم يكن موقفا متفردا ولا نكاد نعرف موقفا جماعيا يشير بغير ذلك ·· قد تكون هناك أحداث فردية يمكن أن تحدث فى أى وقت وفى أى مكان بغض النظر عن الطائفة التى ينتمى اليها أصحاب هذا الموقف·

أنظر أيضا الى موقف الأقبــاط من الحملة الفرنسية فسوف نجد أن التيار العام القبطى كان أيضا وبرغم المظلة المسيحية الواحدة مع أهـل الحمـلة الا أن هذا الموقف اتســـم بأنه جـــزء من

الموقف العام وحتى حين حاول البعض اتخاذ موقف مختلف تعاطفا مع الفرنسيين ضد العثمانيين والمماليك متمثلا فى الحركة الشهيرة للجنرال يعقوب ، فان التيار العام القبطى قد رفض ذلك واستهجنه، ولم يلق قبولا شعبيا كاملا بينهم ، ووقف البطريرك القبطى موقفا حاسما وحادا ضده وكان يمكن أن يحدث هذا بغض النظر عن الطائفة التى ينتمى اليها من قاموا به •• فربما تصور يعقوب واتباعه أنهم حين يستعينون باحتلال ضد احتلال أخر ، فقد يكون ذلك فكاكا من الاثنين معا •• ولا تثريب عليهم فى ذلك مع الفارق فى القياس •• فقد استعان مصطفى كامل بفرنسا ضد بريطانيا •• اذن فالقياس جائز فى هذا التوجه ولا يجب أن يكون قياسا طائفيا بحتا •• أردت بهذه المقدمة أن أؤكد أنه ليس فى تاريخ الأمة المصرية ثارات قديمة تدعو الى أن تتفجر هذه الصراعات بين الحين والحين •• بل اننى أؤكد زعمى هذا مستندا الى أساليب علمية واضحة فالتاريخ الاجتماعى لمصر يؤكد دوما ان الاضطرابات الطائفية لم تكن أبدا تعبيرا عن صراع دينى أو مواجهة طائفية بالمعنى الروحى المباشر ولكنها كانت دائما رد فعل لصراعات من نوع آخر كامنة فى ضمير المجتمع ووجدانه •• ولنأخذ أمثلة من الماضى القريب •• تذكرون الفترة من ١٩٠٨ الى ١٩١٢ أو ١٩١٣ وهى فترة الصدام الطائفى والذى بدأ بمجموعة المقالات الشهيرة بين الصحافة التى عبرت عن وجهة النظر الاسلامية والصحافة التى كانت تعبر عن وجهة النظر القبطية •• وكيف انتهى الأمر باغتيال رئيس الوزراء القبطى فى ذلك الوقت•• سوف نجد أن الدوافع لذلك كانت دوافع سياسية من الدرجة الأولى

ولم تكن طائفية بشكل خالص ٠٠ كان المصريون قد خرجوا بكثير من المعاناة من القهر المباشر لحادث دنشواى الذى هز ضمير ووجدان هذه الأمة والذى أشعرها أنها فى مواجهة قوة احتلال أجنبى وجعل الرفض لكل ما هو قائم أمـرا مستحيـــل التنفيذ ٠٠ فلم يــكن هناك بد من الانفجار من الداخل ٠٠ ولعب الأجنبى فى ذلك لعبته الشهيرة القائمة على مبدئه المعـروف فرق تسـد ٠٠ فالبريطانيون أزعجهـــم أن الأقبـاط جزء من نسيج هذه الأمة لا يتفاعلون مع المحتل الأجنبى ولا يتعاطفون معه ٠٠٠ فى تلك الفترة أوعزت قوة الاحتلال فى ظل هذا المد المتصاعد والحساسية الزائـدة الى السلطه المعنية بأمر البلاد لتختار بطرس باشا غالى فى ذلك الوقت رئيسا للوزراء وكان الاختيار غير موفق ربما لارتباطات سياسية للرجل نفسه رأتها بعض التيارات الوطنية مختلفة معها فى الرأى ، ولسبب آخر وهو أن هذا الاختيار فى ذاته كان فيه استثمار للمناخ الحـاد والمواجهة المعروفة بين المسلمين وغير المسلمين بحكم الاعتبارات التى سـبقتها ٠٠

نفس الأمر اذا أخذنا بداية السبعينيات من هذا القرن وهو بداية تصـاعد المد الدينى من الجانبين وظهـور التطرف والفتنة الطائفية بشكلها المعروف٠٠سوف نجد أن آثار نكسة ١٩٦٧ والهزة العميقة التى أحدثتها فى وجدان وضمير المصريين قد جعلت كلا منهم يفتش فى ذاته ويبحث فى أعماقه عن هوية أخرى تخرجه من نطاق الهوية المهزومة ٠٠ اذا جاز هذا التعبير ٠٠ فلجأ كل الى دينـــه ، وتصور كل أن هذه هى هويته الحقيقية وبدأ يواجه بها الطرف الآخر بدلا من مواجهة جماعية للطرف المعتدى ! ولحسن الحظ أن الأمر لم يستمر وانهت حرب ١٩٧٣ ذلك الاحساس المرير ولكن بقيت آثاره فى شكل ذلك القلق الطائفى وذلك الضجيج الدينى الذى حدث بين

فترة وأخرى فى حقبـة السبعينيات وظلت أصـداؤه وآثاره حتى اليـوم !!

ان خلاصة ما أريد أن أصل اليه : أن الأمر لا يكاد يكون فتنة طائفية بالمعنى الدينى أى أنه ليس هناك خلاف مذهبى حقيقى بين المسلمين والأقباط ، وربما لا يبدو أن هناك أيضا ثأرا تاريخيا بين المسلمين والأقباط ·· بل العكس فان الشواهد تؤكد غير ذلك ·

أضيف الى هذا بعدا آخــر كان يدعو الى ألا تظهر مثل هذه الأحداث ·· فالمسلمون ينتمون الى دين سمح ·· بنصوصه وتعاليمه بغض النظر عن تطبيقاته وتاريخه ·· فنحن فى الاسلام مسئولون عن النص وعن جلاله وروعته ولسنا مسئولين عن ســوء التطبيق وأخطائه فى عصور الخلافة الاسلامية أو ما بعدها ·· فالاســلام الحقيقى يدعو الى التسامح ويذكر أهل الكتاب بكل الرعاية والتقدير ويدعو الى حماية أهل الذمة وتأمينهم والمساواة بينهم فاذا كان هذا هو الاسلام ، فما بال المسلمين لا يدركون حقيقته ··

الأمر أيضا أننا فى مواجهة أقلية بالمعنى العددى وتاريخهم الاجتماعى من خلال الرؤية المصرية الكاملة يؤكد أنه تاريخ وطنى وجزء لا يتجزأ من تاريخ الأمة المصرية كلهـا ·· بل انكم تعلمون ولا تختلفون معى فى الرأى اننا نتجاور تاريخيا مسلمين وأقباطا فى نفس المساكن ونفس الأحياء ·· لم يتخذوا لأنفسهم أحياء ولم نتخذ لأنفسنا مواقع مختلفة ·· بل ان زيادة نسبة الأقباط فى بعض مدن الصعيد سببها مرتبط بتاريخ المسيحية وقدوم القديس مرقص من الجنوب الى الشمال ·· أى أنه لم تحدث فى تاريـخ مصر عمليـة تركيز واعيـة لوضع الأقبـاط أو المسلمين فى مواقع وتجمعـات

مختلفة ••هذا فى حد ذاته ينهض دليلا للتجانس والوحدة الاجتماعية والانسجام القائم بين عنصرى الأمة ، وأعتقد أن هذا التعبير غير علمى لأن الأمة تنتمى الى عنصر واحد ونسيجها واحد •

نأتى الآن الى السؤال الملح : « اذا كان الأمر كذلك لا يوجد تأر تاريخى ولا يوجد خلاف مذهبىحول قضايا محددة فى دولة تتمتع بأقدم الكيانات السياسية فى المنطقة وربما فى العالم كله باعتبارها دولة مركزية نهرية قديمــة عرفت التاريخ المكتوب والمنقوش منذ آلاف السنين •• اذا كان الأمر كذلك ودين الأغلبية لا يدعوهم الى ما يحدث •• فما تفسير ما يجرى !

التفسير عندى وبكثير من الصراحة والوضوح التى أرجو أن تؤخذ فى مكانها الصحيح هو أننى أرى أن لهذه الاضطرابات دوافع مختلفة •• أن مصر مستهدفة تاريخيا وهذه الدولة المحورية فى هذا الموقع الحساس من العالم لايراد لها أبدا أن تكون دولة مركزية قوية •• ولقد جربنا المد والجذر فى فترات متعاقبة من التاريخ هكذا حاول محمد على وانتكس بمعاهدة ١٨٤٠ ، وهكذا حاول جمال عبد الناصر وانتكس بهزيمة ١٩٦٧ •• أى أن خلاصة القول أن السماح بدولة مركزية مؤثرة فى هذه المنطقة يخضــع لشروط وضوابط اقليمية ودولية لا يسمح بتجاوزها •• فاذا رأينا مصر تستعيد وضعها على خريطة المنطقة وتستعيد وضعها العربىوالاسلامى والأفريقى وتستعيد دورها وحيويتها النشيطة فى المنطقة ، فى وقت تبدو فيه الاضطرابات والقلاقل فى جناحى الأمة العربية شرقها وغربها ، بل خريطة العالم الاسلامى والعالم الثالث كله •• فلابد من كم هائل من المشكلات يثور فى داخل هذه الدولة فى ظل أساليب مستحدثة لحرب المعلومات والحرب الدعائية الخطيرة التى تستطيع أن تنشر الشائعة فى ساعات، وأن تسمح لهذه الشائعة بأن تترك آثارها وبصماتها القوية على من

توجه اليه ٠٠ فى صعيد مصر مثلا بحكم التقاليد تبدو مسائل الأخلاق والأعراض مسائل شديدة الحساسية لدى المصريين جميعا مسلميهم وأقباطهم ، وفى صعيد مصر يبدو الأمر أكثر ايقاعا وحدة ٠٠ اذن فليكن نمط الشائعات هناك من ذلك النوع الذى يؤثر فى هذا الكم من السكان ٠٠ وهكذا كان الأمر ٠٠ ولكن دعونى أقدم هذه الأسباب فى ايجاز ووضوح ٠

أسباب الفتنة

اذا بحثنا فى أسباب الفتنة الطائفية وجدنا أول هذه الأسباب ضعف حركة الأحزاب السياسية على الساحة فى مصر ، ولا أقصد بذلك حزبا حاكما أو أحزابا فى المعارضة ولكنى أستطيع القول ـ وأنا هنا أعبر عن رأيى الشخصى ولا أعبر عن المؤسسة التى أنتمى اليها فقد جئت هنا فى لقاء مفتوح ـ أقول أن حركة الأحزاب السياسية لاتستطيع أن تقدم للمواطن فى مصر ما يملأ الفراغ السياسى على الساحة ٠٠ دعونا نتأمل كيف كان يستطيع مكرم عبيد فى مدينة قنا أن يكتسح ياسين أحمد باشا نقيب الأشراف فى بلد يبدو فيها المسلمون أكثر من ٧٥ أو ٨٠ فى المائة ٠ كيف تحقق ذلك ! السبب فى ذلك بوضوح أن الناس تسعى الى صناديق الانتخاب لتقارن بين الوفد وغيره من الأحزاب ٠٠ لا أن ترى الناس بألوانهم ومعتقداتهم الدينية ٠٠ الأمر الآن مختلف ٠٠ هل من قبيل السر أن تقول أننا لم نتمكن منذ عام ١٩٥٢ أن نقدم للبرلمان قبطيا منتخبا واحدا الا فى حالات نادرة مما اضطر الدولة الى أن تصطنع نصاب الأعضاء العشرة لتعطيهم مقاعد فى البرلمان !منذ متى كانت هذه السمة

في مصر ؟ ومنذ متى كانت هذه شـخصية مصر ؟ ٠٠ أقول ذلك لاؤكد أن ما حـدث هي أمور وافدة على الوجـدان المصرى وعلى الشخصية المصرية ٠٠ هذه هى أول الأسباب ٠٠

السبب الثانى ويجب أن نواجهه أيضا بوضوح هو أزمة الثقة التى خلقهـا مناخ التطرف فى الجانبين أننـا لسنا هنا الليلة لكى نلتمس الأعذار ونغطى الأخطاء ـ ولكن بالتأكيد مناخ التطرف الذى بدأ يبرز على الساحه منذ بداية السبعينات والاستغلال غير الذكى وغير السليم للدين فى السياسة أورثتـا الآن تركة ثقيلة معروفة للجميع ٠٠ هذه التركة تخلط بين سماحة الاسلام وعظمته ورعايته للأقليات وحفاظه عليها وبين ذلك الاسـتعلاء والغطرسة والدعوة بالعنف وتكفير الناس وتجهيل أهل المعرفة ٠٠ اذا كان الأمر كذلك فان هذا المناخ بما يخلقه من مخاوف يغذيها الاعلام الغربى ويبالغ فى تصويرها فلابد أن تخشى الأقلية وأن تخاف ٠٠ والأمر عندى أن الخوف لا يتصل بالأقليـة وحدها ٠٠ ان الخطر الداهم يلحق الجميع ٠٠ ان ما يحدث الآن انما يواجه الصف الأول فقط بالنسبة لمن يرفعون رايات التطرف أو يواجهون الجانب الآخـــر ٠٠ ولكن الأمور لو تركت على ما هى عليه فســوف تمضى الى ما هو أبعد من ذلك ! اذن ٠٠ مناخ الثقة المفقود وذلك الوهم الذى يبدو على الساحة من جراء التطرف هو الذى يدعو الى هذا الجو العام الذى ساعد على هذه الأحداث ٠٠

الأمر الثالث وبكل الوضـــوح هو افتقاد الشباب للمشروع القومى العام ٠٠ لقد درجنا على الدراسة فى علم السياسة على أن هناك الدولة الكفاحية أى الدولة التى تضع شعارات محددة تلزم الناس جميعا بالانضواء تحتها لتحقيق هدف معين ٠٠ مصر حاليا تخلصت من الاحتلال بتحرير أرضها٠٠ ومصر غير ملزمة بتركة ثورة

وصراع ثوار ، فلقد أيد الشعب فى الخمسينيات وبداية الستينيات حركة الثورة وصراع رفاق السلاح حول ما يجب ولايجب وتحملت مصر فيما بعد ذلك بنكبة ٦٧ واثارها على الأرض المصرية والتراب المصرى ٠٠ أمـا الآن وقد بـرأت مصر مـن الاثنين معـــا ٠٠ صراعات مراكز القوى مـن جانب والاحتـــلال الأجنبى من جانب آخر ، فأصبحت ركائز عملهـــا الداخـــلى هى البنـــاء الاقتصادى فى الداخـــل والسعى لخلق مجتمع الرفاهيـــة ٠٠ وقد ننسى أحيانا فى زحـــام العمل اليومى وفى تقلب الأحداث المتتاليـة أن هناك خطوطا عريضة تصنع ضمير الأمة ووجدانها ٠٠ ويجب أن تتوافر فى كل وقت ٠٠ نعم هى متغيرة بحكم الظروف ٠٠ متغيرة بحكم الزمان والمكان ولكنها يجب ان تتواجد ٠٠فالشباب اليوم وليس الشباب وحده ولكن شرائح المجتمع فى معظمها تتطلع الى مشروع قومى عام يلزمها ببرنامج للعمل يدعوها الى المضى فيه وفقا لخطة مدروسة يبعدها نتيجة الاندماج فى هذا المشروع عن كل الأعمال المتصلة بالتطرف أو الطائفية ٠

بقى السبب الأخـير والذى يجب ألا نغفله حقـه أبدا وهو مجموعة المتاعب الاقتصادية والتناقضـــات الاجتماعية ٠٠ دعونا نتساءل فى وضوح ٠٠ الشاب خريج الجامعة الذى تهدد البطالة وشبحها مستقبله ولا يجد من راتبه اذا عمل ما يمـكن أن يغطى مقتضيات حياته ٠٠ أنتم تعلمون ماذا يفعل ٠٠ اذا فتح الله عليه بعقد عمل فى الخارج فقد حلت المشكلة بالهجرة المكانية ، واذا لم يحدث ذلك وفى الغالب لا يحدث فان عليه بالهجرة الزمانيـة ٠٠ فاذا به يذهب بعيدا فى عصور سحيقة ٠٠ يتنـــاول من الأفكار وربما بغير وعى عميق وفكر واضح ما يجعله يرفض كل من حوله ويتنكر حتى لأبويه ويرفض أسرته الصغيرة والكبيرة ويكون لقمة سائغة للتطرف ويصبح فى ذلك مادة لكل أعمال العنف والطائفية ٠٠

وهل يخفى علينا أن القائمين بكل أعمال العنف فى الفترة الأخيرة هم من الشباب فى ســـن من ١٥ الى ٢٠ ســـنة وربما أقل ٠٠ ماذا يعنى ذلك ٠٠ يعنى ذلك النوع من القلق على المستقبل وذلك النوع من الانزعاج الداخلى القائم على عدم الاحساس بالأمان وحين يفتقد الانسان أمنه فلا تتصـــور أنه سوف يعطيه لغيره ٠٠ هذه مسلمة نعرفها من أحداث التاريخ فى كل وقت ٠

صيغ المواجهـــة

أريد أن أقول أننا تعودنا على رموز الثورة الشعبية فى عام ١٩١٩ باعتبارها فترة المد للوحدة الوطنية ٠٠ تعودنا على هذه الرموز باعتبارها الحل المنطقى التقليدى للمشـــاكل الطائفية ٠٠ لقاء بين مجموعة من المشايخ والقساوسة فى مكان عام ينتهى بالاشادة من الجانبين بالجانب الآخـــر ٠٠ وتنتهى بالقبلات والتصفيق ٠٠ قد يجوز هذا من الناحية الشكلية ٠٠ فالأمم أيضا كالأفراد تحتاج الى الرموز ٠٠ والفلكور السياسى والاجتماعى جزء من خلق التقاليد ٠٠ وهو أمـــر مقبـــول ٠٠ ولكن ليس ذلك هـــو الحـــل الوحيـــد ٠٠ قد يبدو هذا مسكنـــا اجتماعيـــا عاما ٠٠ ولكن كيف نقبـــل فى مجتمع يتحاور فيه المسلمون والأقباط ويشـــارك فيه البعض البعض الآخر فى كل مناســـباته بأن نكتفى بمثـــل هذه الحلول المظهرية ٠٠ هل يخفى عليكم أنه فى تقاليد بعض الأسر فى قرى مصر الا يحمل نعش الموتى المسيحيين الا مسلمون والا يفعل الأمر بالنسبة للمسلمين الا المسيحيون ٠

هذه الدلالات يجب احياؤها فى تراث الأمة ٠٠ ولن تحيـــا الا بالتركيز على مناهج التربية فى الأسرة وفى المدرسة ٠٠ ان دور المعلم فى السنوات الأخيرة يبدو دورا خطيرا ومؤثرا ٠٠ ان المعلم الذى لا يعى تماما طبيعة التركيبة الاجتماعية فى مصر ويدفع تلاميذه

بوعى أو بلا وعى الى التخوف من أصحاب الدين الآخر أو يخلق لديهم حساسيات ومخاوف انما يزرع بذلك آلاما فى وجدان هذه الأمه يستمر لسنوات طويلة ·· فدور المعلم فى هذا خطير للغاية ·· فى التعليم فى مراحله الأولى والمبكرة بالذات ·· انتى لست ضد غرس قيم التدين لدى الأطفال فهذا أمر مطلوب ·· ولكن التفرقة الواعية بين التدين والتعصب أمر حتمى ولابـد من الوعى به والاهتمـام بأساليب التعامل فيـه ، لأن ما يحدث الآن هو أن هناك أزمة ثقة حقيقية لدى الجيل الصغير تجاه أشياء كثيرة من حوله من بعضها المخاوف من أهل الدين الآخر ، هذه الأمور وافدة وطارئة على وجدان المصريين ·· تذكرون منذ سنوات حين حفلت كل السيارات بعلامات ورموز لأهل الديانات ·· ولقد كان لى شخصيا اسـهام متواضع بمقال فى الأهرام قلت فيه منذ متى نصنف المصريين !؟ الذين لم ينقسموا فى أحياء معينة ·· لم يوجدوا فى شوارع خاصة ·· الآن تصنفهم بالسيارات ! ولحسن الحظ اتخذ وزير الداخلية فى ذلك الوقت قرارا برفع هذه العلامات من السيارات ، وأعفى البابا شنودة الأقباط من أى تبعة دينيـة فى هذا فرفعوها أيضا ·· اذن كل محاولات التكريس والتلوين من خلال وسائل الاعلام أو المدارس أو المعاهد أو مراكز التربية من أخطر ما يمكن ·· ويبدأ الأمر بالأسرة التى يرى فيها الابن أباه يتزاور مع جاره القبطى أو الذين تربوا مع زملائهـم الأقبـاط فى المدارس ·· ونشـأوا على كثير من السماحة والمحبة ·· فلا نكاد نعـرف اذا كان هذا الزميل قبطيا أو لا الا بمناسبة معينة كالاعياد أو الذهاب الى كنيسـة للأفراح مثلا ، فانما المصريون من نسيج واحد خضعوا لظروف تاريخيـة واحدة ·· هم من أصل سـكانى واحد لا يستطيع أحد أن يقول افتراء بأن المسلمين من أصل يختلف عن الأقباط ·· الكل مصريون منهم من اعتنق الاسلام ومنهم قبل مع احترامه للاسلام أن يبقى على

دينه ٠٠ الأمر فى ذهنى يحتاج الى التوعية والتربية والتركيز على الأجيال الجديدة فى المناسبات المختلفة ٠

المناخ العام السائد لابد أن يتغير وهذه مهمة اعلامية وثقافية سوف تستغرق منا وقتا طويلا لان نتائجها لا تظهر بين يوم وليلة ولكنها تحتاج الى وقت طويل ٠٠ أيضا أدعى أن المضى قدما فى حل المشكلة الاقتصادية سوف يحدث نوعا من الارتيـــاح العــــام والتقليل من ضغط الموقف وآثار المواجهة ٠٠ ففى عصور الفراغ السياسى والضائقة الاقتصادية تنفجر كل الأزمات بما فيهـــا من أزمات دينية وأزمات سياسية وأزمات اجتماعية أيضا ٠٠ أملنا فى ارتفاع الوعى السياسى وارتفاع مستوى التعليم ٠٠ وحين يتحقق ذلك سوف تبدو الصورة مختلفة ٠

بقيت كلمة أوجهها الى الأغلبيــة على أرض هذا الوطن ونحن ننتمى اليه « يجب أن تحتوى الأغلبية الأقلية وتحتضنها بكثير من الرعاية وربما المحاباة » ٠ أقول ذلك وفى ذهنى أيضـــا أصــداء للتجربة الهندية ٠٠ أذكر أن رئيسة الوزراء الهندية الراحلة أنديرا غاندى كانت توجه خطابا الى المسلمين فى المولد النبوى الشريف ٠٠ وتجعلها عطلة رســمية للبلاد ، فى وقت كانت فيه بعض الدول الاسلامية لا تعتبر المولد النبوى عطلة ! وهذه الرعاية من الأغلبية للأقليـــة أمر مطلوب ومحبــوب لأن المشـــاركة الكاملة تدعونا دائما الى مزيد من التقارب والى أن تسود مشاعر حقيقية للمحبة على أرض هذا الوطن لأنه لا توجـــد مشـــاكل ســـياسية ولا ثارات تاريخية ولا متاعب مذهبيـــة تدعو الى ما يحدث ٠٠ بل العكس فالأمر يبدو مختلفـــا تماما ٠٠ كمـــا أن مواجهـــة الشائعـــات ومحـــاولات الغزو الفـكرى والثقافى والاعلامى مـــن الخارج ومحاولات الانتقـــام من الشخصية المصرية وضرب هذه

الهوية فى الصميم بنقل تجارب شعوب أخرى مضطربة فى المنطقة اليها ·· هذه الأمور لا يجب ان تقبل ·· لأننا كيان سياسى يمتد شكل خريطته المحددة لآلاف السنين بينما هنـــاك دول أخرى هى مجرد كيان سياسى ظهر منذ ثلاثين أو أربعين سنة فقط ·

فقد ظهر لبنان مثلا فى ظل تركيبة سياســية ودينية معينة لعب فيها الأجنبى دورا معينا ·· انما هنا على ضفاف النيل حيث يعبد المسلمون والأقباط ربا واحدا منذ آلاف السنين لا يجب أن تثور أبدا مثل هذه الصراعات ·· فالتطرف مشكلة نواجهها معــا مسلمون وأقباط ·· نستطيع ان نقول أنها أزمة أو مشكلة للجميع ولا يعانى منها الأقباط وحدهم ·· ألم يقتل رجل دين مسلم بواسطة المتطرفين ·· ؟

ألم يواجه المسلمون فى كل مكان بما يروع أمنهم وينال من اســـتقرارهم ؟ ·· فلا يجب أن يصـــور التطرف على أنه موجه ضد فئـــة دون غيرها ·· هى مشـــكلة عامة ·· وأود أن أضيف أن الحل « البوليسى » ليس هو الحل الوحيـــد ·· نعم المواجهـة الأمنيـــة مطلوبة وهى ضرورية ولكن يجب أن تتواكب مع حـــل سياسى يملأ الفـــراغ على الساحة المصرية بحـركة دؤوبة للأحزاب المختلفة تعرف المصريين بحقوقهم وواجباتهم وتدعوهم الى المشاركة وتخرج بهم عن اطار السلبية وتجعل الانتماء للفكرة السياسية يشد المواطن العادى من محاولات جذبه لمنـاخ التطرف أو العنف ولكن يبقى الانتماء للدين روحيا أمر لا جدال فيه ولا اعتراض عليه أما أن نحتمى بمظلة الدين لمواجهة الآخـــرين بغير حق فذلك خطر داهم على مصر وعلى غير مصر ·



الحركة الأصولية بين الفكر المطلق والمفهـوم النسبى(*)

(*) من محاضرة للمؤلف أمام شباب العالم الاسلامى فى معسكر ابى بكر الصديق فى ٢ سبتمبر ١٩٩١ ٠

ان الأمة الاســلامية مستهدفة بوجه عام شئنا أو لم نشأ بمحاولات متعددة ومن جهات مختلفة تبدو فى نهايتها وكأنها محاولة منظمة للنيل من الاسلام وشريعته السمحاء بل ويرجع أحد الأسباب فى ذلك الى اننــا كمســلمين نسهم فى دعم هذه الحملة ونقدم لها ـ صباح مساء ـ مادة قوية تساعد على طرح الصورة التى يروجون لها والفكر الذى يدعون اليه وبكل صراحــة هناك محاولات لربط العالم الاســلامى بكل أشكال التخلف الاجتماعى والقهر السياسى والمشكلات الاقتصادية على الرغم من ثراء العالم الاســلامى وفيض الطبيعة عليه بثروات لا تخفى علينا جميعا والسؤال الذى يطرح نفسه لماذا تبدو الأمور هــكذا اليوم ؟! لابد من عودة سريعة الى الماضى ٠٠ ان المواجهة بين الشرق المسلم والغرب لها جذور تاريخية معروفة لدينا جميعا ٠٠ ولسنا من دعاة التعصب أو من هواة تقسيم الناس وتصنيف أنواعهم ٠٠ اننا نؤمن كما علمنا الاسلام ان العقيدة حق لمعتنقها وانه لا اكراه فى الدين واننا جميعا متساوون كبشر ٠٠ ولكن القضية الحقيقية التى تطرح نفسها هى ان الاسلام يبدو أمام العالم ليس كمجرد الدعوة العظيمة التى وجهت الى الناس كافة منذ عشرات القرون ٠٠٠ انما ينظر اليه باعتباره ظاهرة سياسية أثرت فى الماضى وتؤثر فى الحاضر ويمتد تأثيرها متزايدا فى المستقبل ٠٠ لذلك كان لابد أن ندرك حتى ولو كان ادراكنــا متأخرا ان دورنا أصبح حتميا فى ابراز الصورة الحقيقية للاسلام بسماحته ورحابته فى عمقه وارتباطه بالحياة ماضيا وحاضرا ومستقبلا ٠٠ ولم يبق فى الامكان أن نمضى فى صمت فى مواجهة كل الحملات المستمرة التى توجه الى العالم الاسلامى والى شعوبه ولا شك أن هناك أمورا تساعد على ذلك ٠٠ ربما بدأها غيرنا ولكن انسقنا اليها بوعى أو بغير وعى٠٠

أولى هذه الظواهر هو ذلك التمزق الذى حل بالعالم الاسلامى وجعل صورتنا فى أعين غير المسلمين صورة ترتبط بالصراع والصدام والانقسام المذهبى أحيانا والاختلاف السياسى أحيانا أخرى •

ولقد كانت الحرب العراقية ـ الايرانية ذروة المأساة حيث بدا الاسلام فى هذا العصر وكأن المسلمين غير قادرين على أن يجمعوا صفوفهم أو يوحدوا كلمتهم •• لقد كانت تلك الحرب ظاهرة من نوع خاص لأنها حاولت التفرقة بين ما هو عربى وما هو غير عربى والاسلام لا يعرف هذه التفرقة أيضا لأنها أحيت فى أعماق الناس سنوات الفتنة الكبرى وذلك الصراع المعروف بين المذاهب الاسلامية تجاه الرؤية لطبيعة الشريعة الاسلامية وانسقنا بوعى أو غير وعى أيضا وراء ذلك التيار الجارف •

وبدا العالم الاسلامى فى أعين غيره ممزقا محطما فكان من نتائج ذلك أن تمكن كل ذى غرض من أن يربط بين الاسلام وبين العنف والتخلف والقهر السياسى وكل أنواع البعد عن المشاركة السياسية وانعدام الحريات العامة •• يجب أن نعترف بهذه الحقيقة لأن غيرنا لا يؤمن بالأدلة النقلية ولكنه يؤمن بالأدلة العقلية فلابد من مخاطبة العقول لأن غيرنا أيضا لا يؤمن ولا يفكر مثلما نفكر • فالاسلام يبدو للكثيرين ليس فقط ذلك الدين الحنيف ولكنه أيضا طرح قومى •• ولعلى أسوق فى ذلك مثالا معروفا لكم جميعا وهو حرب التحرير الجزائرية حيث كان الثوار الجزائريون يحاربون لنيل الاستقلال فى جبال الجزائر وهم يحملون معهم الاسلام لا دينا فقط ولكن كدين وقومية فقد كان الجزائرى يتحدث نفس لغة من يحاربه! • وكانت الجزائر جزءا لا يتجزأ من الجمهورية الفرنسية كما تعلمون فكان طبيعيا أن يسهم الاسلام بذلك الدور الفعال فى تكوين شخصية المقاتل فى مواجهة التحديات المختلفة •

ان هناك محاولات لتشويه صورة الاســـلام تبدو كل يوم متحاملة عن اليوم الذى سبقه ٠٠ كما أن الظروف قد تســـاعد خصــوم الاســلام فى كثير من الأحيان حيث يبدو سياق الحوادث مؤيدا لتلك الدعاوى الظالمة والافتراءات التى توجه الى هذه الشريعة السمحاء ٠

وهنا لابد من البحث عن الدور المصرى ٠٠٠ والاسلام لا يعرف الحواجز والحدود ٠٠ فالاسلام للناس كافة فى كل مكان وكل زمان لذلك فليس من قبيل العنصرية الوطنية أو الشيفونية القومية ان نميز لمصر دورا خاصا فى تاريخها الاسلامى ولكن ذلك قدرها وذلك أيضا حقها ٠

فمنذ الفتح الاسلامى لمصر ودورها الريادى يبدو على الخريطة٠٠ لقد كان لمصر مكانة قبل الفتح الاسلامى وهذه حقيقة مكانتها المعروفة أيضا وكلنا يعلم ذلك الجدل الذى دار بين كبار الصحابة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر بالنسبة لفتح مصر وتخوف البعض من أن مصر تلك الحضارة النيلية النهرية العريقة والدولة المركزية القوية قد لا تتـــاح للعرب برغم دخولهم الى بلاد الفرس والروم وتصوروا أن ليس لديهم القدرة على فتح مصر الى أن تمكن عمرو بن العاص من اقناع الخليفة الثانى عمر بن الخطاب باتمام الفتح وأوصـــاه بما أوصـــاه وأعطاه مهلة زمنية ولقنه من المحاذير ما يعطى انطباعا بأن فتح مصر كان يبدو أمام العرب المسلمين فى سنوات الدعوة الأولى أملا يتطلعون اليه وقوة يراد ادخالها فى دائرة العالم الاسلامى فى سنواته المبكرة لذلك كان حجم مصر ووزنها الحضارى اضافة طبيعية فيما بعد تعطى ثقلها للعالم الاسلامى ٠٠ لقد كانت مصر ولا تزال هى حافظة التراث الاسلامى وهى حامية لغتها العربية ٠٠ والأزهر الشريف هو قلعة العلوم الدينية واللغوية على امتداد ما يزيد عن ألف عام لذلك كان طبيعيا أن يرتبط دور منبر

الأزهر بدورها الرائد فى المنطقة كلها ٠٠ ليس الأمر كذلك فحسب ٠٠ بل اننى أستميح بعض أساتذتى من رجال الدين عذرا اذا قلت اننا اذا كنا نرى وعن حق ٠٠ ان الاسلام دين للكافة الا اننى أشعر وأرجو ألا أكون مخطئا أن تناول المصريين للدين الحنيف كان فى أبسط وأروع صوره ٠٠ مصر عرفت الفرق الاسلامية لفترة لم تكن طويلة ثم استعادت اجماعها حول المذهب الرئيسى للمسلمين ٠٠ لذلك كان طبيعيا ومصر لم تتمزق بين الفرق والنزعات والدعوات أن يكون الاسلام فيها من الصلابة والقوة ما يدفعه دفعا الى العالم ليكون منارة للعالم الاسلامى كله وكان أمرا طبيعيا اذن أن يكون دور مصر دورا رياديا ومؤثرا ٠٠ فان مصر ظلت هى المؤنس أيضا للفكر الدينى واللغوى فى سنوات الوحشة والظلام ٠٠ فى قرون السيطرة واضمحلال الخلافة أو ضعفها على عهد الدولة العثمانيـة وما بعـدها ٠٠ اذا كان من الطبيعى أن يمتد دور مصر الاسلاميـة لتعطى بأبعادها المختلفـة وأعماقهـا المعروفة اضـافة سياسية واستراتيجية للدعوة التى هزت أركان الدنيا الأربعة ٠٠ كان طبيعيا أن يكون الاسلام فى مصر بلد الأزهر منارا لغيره من الشعوب العربية والاسلامية ٠

وحتى حين تعرضت مصر لهزات فى عصورها المختلفة فانه لم يستطع مدع أو راغب أن يسلب من مصر مكانتهـا وثبت للجميع أن مكانة مصر الاسلامية لا تعتمد على قدرة مالية أو منح دراسية أو كتب تطبع ولكنها قبل ذلك وفوقه مكانة مصر الروحية فى قلوب من عرفوا قدرهـا عبر التاريخ والأجيـال التى تعلمت فى الأزهر الشريف وبرزت فى أروقته المختلفة ٠

لذلك كان طبيعيا ألا تتمسك مصر فقط بهذا الدور ولكن أن يظل هـذا الدور لصيقا بهـا فى سنوات المحنة وأوقات الضعف ولا أقول الضعف بمعنـاه الاقتصـادى أو السياسى ولكن تكالب

المشكلات وتآمر القوى المختلفة ضد هذا البلد٠٠ظلت مصر الاسلامية حريصة على دورها مؤمنة بقدرها داعية الى الثقافة الاسلامية واللغة العربية على امتداد قارات العالم حتى أصبحت نموذجا للحياة الروحية المرنة التى تضع فى اعتبارها ظروف الزمان والمكان ٠

ان النبى صلى الله عليه وسلم رأى أن يوجه ومن بعده صحابته الأوائل جيوشا للفتح فى بعض المواقع واكتفى فى البعض الآخر برسل للدعوة وأرسل للبعض الآخر وسائل أكثر رفقا ٠٠ وموقفه من اليهود ومن غير المسلمين واتفاقه واختلافه مع هؤلاء وأولئك يعطى نموذجا للممارسة المرنة وتفهم النبى لحقائق الحياة وتشابك المصالح ٠

ان الاسلام لم يقل أبدا بالمطلق فلم يدفع الناس دفعا الى أن يناطحوا العالم أو أن يبدوا أمرا قبل أوانه أو أن يقفزوا على الحقائق ، ان الاسلام دعوة صريحة للممارسة السياسية الهادئة التى تعتمد على الحكمة الرفيعة المستمدة من الشريعة السمحاء ٠٠ فاذا كانت الحركة الأصولية الاسلامية تعتمد اليوم فى بعض مصادرها على مفهوم الجهاد بشكل مطلق والدعوة الى رفض ما هو قائم فى كثير من جوانب الحياة ولفظ حقائق العصر والخروج عن دائرتها فى عزلة زمنية ٠٠ أقول ان ذلك يبدو أبعد ما يكون عن الفلسفة الحقيقية للفكر الاسلامى ودعوته العظيمة ٠٠ اننا لا نستطيع أبدا أن ننكر أننا فى عالم كبير يزخر بالتيارات والدعوات ويموج بالاتجاهات والفلسفات والأفكار والنظريات اننا لا نستطيع أن نعزل أنفسنا عن هذا العالم لنتحدث فقط عن عالم اسلامى يواجه الدنيا بأسرها ٠٠٠ اننى أدعو الى محاولة للتأمل٠٠أدعو دعاة الحركة الأصولية الاسلامية فى العالم كله الى مراجعة واقعية ترتبط بظروف الزمان والمكان وهو ما لم تحظ به شريعة مسبقة ٠٠ وعلى ذلك فانى أتفهم وبوضوح الدوافع التى تقف وراء الجانب الفكرى للحركة الأصولية الاسلامية

وأعتقد أن الجانب الفكرى فى هـذه الحركة بكل مصادره المتعددة وتوجهاته المختلفة انما يعبر عن التمايز الذى يضع الشريعة الاسلامية فى مكان يسبق فيه الشرائع الأخرى من حيث التدخل المباشر فى شـكل الحياة ونمط التصرف والتى تكاد تكون يوميـة فى حياة الانسان ٠٠ لقد تعرض الاسلام بشريعته تفصيلا للحياة بدءا من الحياة وحتى الموت مرورا بالزواج والطلاق والميراث بل وقد تطرق الى شكل الدولة السياسى تلك أمور من الصعب انكارها ولكن الذى أدعو اليه وأتأمله فى محاولة للتفكير بصوت عال هو ذلك الجنوح الذى تورطت فيه بعض المصادر الفكرية للأساس النظرى للحركة الأصولية الاسلامية فى العالم ولأكون واضحا أقول اننى أعتقد انهم قد انطلقوا من مفهوم مطلق وأغفلوا تماما الحقائق النسبية لطبيعة الحياة وتناسوا ان الاســلام دين ممارسـة ٠٠ بل ان السـنة وممارسات النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه تبدو أمامنا وكأنها محاولة عقلانية للتعامل مع حقـائق الحياة كما هى ٠٠ لم نر فى مصادر الاسـلام الأولى وممارسـاته فى سـنواته المبكرة ما يعطى انطباعا بالتناطح مع الهواء أو الاصطدام بما لا نقدر عليه ٠٠ لقد حارب النبى صلى الله عليه وسلم وتعاهد واتفق واختلف ٠٠ ولم تكن دعوته أبدا بالاكراه ولم تكن أبدا بالعنف وحده ولكنها كانت باللين والحكمة والموعظة الحسنة ، لذلك يكون طبيعيا أن نأخـذ الدرس من مصادر الاسلام الأولى التى أوضحتها الممارسة السياسية للسنوات الأولى للدعوة ٠

٠٠٠ وحين سقطت آخر المظاهر السياسية للخلافة العثمانية وبدا للجميع أن مصر هى المرشحة للامتداد بهذا الدور لم ترشح مصر نفسها لذلك ولكن رشحها له غيرها ورأينا كيف تكونت جمعيات احياء الخلافة فى العالم الاسلامى ٠ بل ولعل المتخصصين يذكرون ان المؤتمر الاسلامى فى لندن عام ١٩٣٦ ركز فى دعوته على عودة الخلافة الاسلامية ورأى أن يكون مقرها هو مصر ٠ اذن دور مصر

لم ينقطع ولم يتوقف بل ان نظرة الى المراكز الثقافية الاسلامية فى العالم كله سوف نجد ان نقطة البداية كانت دائما مصرية لا أقول ذلك منا على الغير ولكن دعوة له ليرى حقائق التاريخ ويعترف بهذا الدور العظيم لمصر المسلمة ٠٠ وحين قامت ثورة يوليو عام ٥٢ لم يجد الثوار الشباب مناصا من الاعتراف بالدائرة الاسلامية كدائرة أساسية فى الدوائر المعروفة بالسياسة الخارجية المصرية وظل دور مصر ممتدا وقائما ولم يتوقف فى وقت من الأوقات ٠

اننى أؤمن عن قناعة بأن الاسلام وهو دين الله الى الكافة قد احتوى من التشريعات الدينية وتضمن من طقوس الحياة ومراسم الوجود ما لا يتعارض مع تقديم الممكن وتأجيل غير الممكن وابعاد المستحيل واذا كان هناك قاعدة فقهية معروفة تقول : ان ما لا يدرك كله لا يترك كله فاننى أضيف اليها ٠٠ ان ما لا يدرك اليوم قد يدرك غدا أو قد يدرك بعد غد ٠٠ انما أن تبدو الدعوة وكأنها قد ارتبطت بالعنف وتغيير الواقع بالقوة فتلك صورة شوهاء لا تعطى الاسلام بريقه الحقيقى وتحرمه من سماحته وعمقه اللذين عرف بهما منذ فجر ظهوره ٠

اننى أدعو هؤلاء وأولئك الى مراجعة الواقع وتأمل الخريطة الحقيقية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا للعالم من حولنا حتى ندرك أن الدعوة تحتاج الى جهد سياسى والى زمن طويل وأن الاسلام لا يدعونا أبدا الى أن نقدم النموذج العنيف السريع للتغيير الذى يؤدى فى النهاية الى آثار سلبية لم نسع اليها بل أنه يقدم فى الحقيقة سلاحا قويا الى يد خصوم الاسلام نفسه ٠٠ كيف يتأتى أن يرتبط الاسلام بعظمته وسماحته المعروفة لنا ولغيرنا وترتبط صورته بالعنف والخطف والقتل والاكراه فى مناطق مختلفة من العالم الاسلامى ٠٠ ولم تبدو تلك المحاولة للقمع والقهر فى كثير من الأقطار الاسلامية مع البعد عن الواقع ؟ والربط بين الاسلام والقهر والتخلف بشكل متعمد ؟ ٠٠

بل أننــا قد سمعنا عن أولئك الذين يتحــدثون عن الهنــد الديمقراطية وباكستان التى حرمت طويلا من الديمقراطية وكأنها محاولة خبيثة تود أن تربط بين الاسلام الحنيف وبين غياب الحريات وظهور الدكتاتوريات المختلفة ثم كيف نسمح لأنفسنا فى العــالم الاسلامى بأن تتمزق أوصالنا ونحن على مشــارف القرن الحــادى والعشرين الميــلادى بين شــيعى وسنى كيف يمكن أن تكون ايران اضافة سلبية للعــالم الاســلامى العربى بينما الأصل أنها اضافه ايجــابية ٠

أننى لا أكــاد أجد مفــكرا اســلاميا مرموقا الا قد اختلطت أنسابه بين العرب وغير العرب ٠ لا تعرف أم من الفرس هو أم أن امتداداته عربية ودراسته فارسية ؟ هــذا التقسيم الذى وقعنا فيه هو الذى أدى الى هذه المظاهر المؤلمة فى عالمنا الاسلامى اليوم ولأكن صريحا وواضحا فأشير الى ضعف المؤسسة الاسلامية فى كثير من الدول الاسلامية وهذا أمر أنبه اليه بلا حرج وأدعو الى مواجهته بلا تحفظ لأن قدرة الدعاة الحقيقيين تتأتى فى دورهم التنويرى ٠ ان الامام العظيم والمفكر الكبير الامام محمد عبده لم يصبح الامام محمد عبده لمجرد أنه كان داعية عاديا فى سلك يجمع الدعاة فى عصره ٠٠ ولكن لأن الرجل ملك من أدوات الاستنارة والاحتكاك بالثقافات الأخرى ما هيأ له ومكنه من أن يكون داعيــة للاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى فى التاريخ الاسلامى الحديث وجعل من ذاته ومن أساتذته وتلاميذه همزة وصــل حقيقية بين الاسلام بنقائه وقوته وبين حياة العصر بكل تعقيداتها وتطوراتها وتوجهاتها٠

اننا نحتاج الى مراجعة أمينة وصادقة ، متى ندرك أننا نبدو بعيدين عن فهم الصورة الحقيقية للاسلام ووضعه فى أعين الآخرين فى الصورة التى يجب أن يوضع فيها ٠٠ ؟! ان الاسلام كان ولا زال وسيبقى أقوى وأكبر تجربة للممارسة الحياتية فى تاريخ البشرية٠٠

بل ان الجانب الأممي في الفكر الاسلامي يسبق كل الايديولوجيات التي نادت بالأممية فيما بعد ٠

ان المشكلة الحقيقيــة هي فيما وفد علينا من تلك المحاولات للتصنيف والتنويع وتوزيع الأدوار بالحق والبــاطل بين المسلمين حتى لقد تصور البعض أن له حقا الهيا في أن يحدد صفة المؤمن من غيره وتلك أمور لا يقدر عليها غير الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بالايمان وهو القادر على كشف النوايا ٠

فاذا كنا نعلم أن تطورات العالم خصوصا في هذه الحقبة ٠٠ تبدو سريعة ومتلاحقة فلا يخفى علينا أننا ننتقل وفي هذه الشهور الأخـيرة من مرحلة كبرى في الشــارع الســياسي للعــالم الى مرحلة أخـرى ٠٠ اننا بصــدد اغلاق الســتار عن الفصل الأخير من مرحلة الايديولوجيات في تاريخ العالم الحديث لنعود من جديد الى مرحلة القوميات في تاريخ العالم الحديث ٠

ان النزاعات الايديولوجية في العالم لم تستطع أن تجمع شتات الناس من قوميات مختلفة واذا بالناس يعودون من جديد الى محاولة للبحث عن الهوية واكتشاف الذات والبحث في الأعماق عن القومية والقومية كما قلت لا تبدو أبدا بعدا مختلفا عن الاسلام لأن الاسلام دين وقومية ٠٠ يعرف ذلك العرب وغير العرب ٠٠ قومية بالمعنى الاجتماعي والسياسي بمفهومها المعروف في الثقافة الحديثة ٠

أننــا نبدو أحوج ما نكون في العالم الاســلامي المعــاصر الى مراجعة أمينة ودقيقة لواقعنا حتى يعود للاسـلام صــورته المشرقة وبريقه الحقيقي في أعين الغير خصوصا أن خصــومه يعرفون ذلك التاريخ جيدا ، لذلك فانني أدعو الى الأخذ بنسبية الأمور والبعد عن كل ما هو مطلق ، أدعو لذلك كل الدعــاة وكل العاملين في حقل الدعـوة الى الشريعة الاســلامية وفكرها المستنير الواضح ٠٠ انني

أدعوهم الى الأخذ بظروف الزمان والمكان والارتباط بواقع الحياة والبعد قدر الامكان عن مواجهة العالم كله أو القفز على التاريخ لمحاولة سبق الأحداث لأن الاسلام دعوة رصينة مؤمنة الى كل ما هو أفضل بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة الطيبة ٠٠ دخيل على الاسلام كل أنواع العنف ٠٠ غريب عنه كل محاولات القسر والقهر ٠٠ أبعد ما يكون عنه كل محاولات تغييب الحريات وتعتيم الارادة وقهر الأفكار فى كل زمان ومكان ٠

فلنكن نحن وأنتم ـ شباب الاسلام ـ فى كل أقطار العالم قدوة وقوة قادرة على الامساك بتلابيب الدين الحنيف والدعوة الصحيحة وتنقيتها من كل شوائب الأفكار التى وفدت عليها والنزعات التى وجدت تجاهها حتى تبدو قضية قوية فعالة كما أريد لها من البداية ٠

ان المؤامرة ـ اذا صح التعبير ـ التى تواجه الاسلام منذ قرون عديدة تبدو اليوم وقد أخذت من دعوات العنف والمواجهة بالقوة فى بعض الأقطار الاسلامية وبعض أفكار الغلاة من دعاة الحركة الأصولية الاسلامية مادة للنيل من الاسلام والكيد له ولذلك فان علينا أن نقطع هذه الدائرة فى النقاط التى نقدر عليها وهى التى تنطلق من العالم الاسلامى نفسه ٠

اننى أدعو الى ضرورة الأخذ بكل ما هو نسبى فى الحياة وربط كل الأمور بظروف الزمان والمكان والبعد عن التفكير المطلق المجرد الذى لا يمكن أبدا الا أن يكون نوعا من الترف «الدوجماتى» غير القادر على معالجة وقائع الحياة وحقائقها ٠٠ ولنعترف أن هناك معوقات أمامنا تجعل قدرة خصومنا على مواجهتنا أكبر ما تكون وأولها التفوق التكنولوجى والعلمى لغير المسلمين ٠٠ لا أريد بذلك أن أقسم العالم تقسيما دينيا ولكننى أريد أن أنبه الى أننا نعيش شئنا أم لم نشأ فى ظلال حضارة غربية متقدمة ٠٠ اذن فعلينا أن

تدفع بكل الايجابيات من حولنا لتقديم الاسلام المتقدم على عصره القادر على تفهم أساليب الحيــاة ٠٠ المواكب لروح الحــاضر بل والمستقبل حتى نكون قادرين على أن نعطى الصورة الحقيقية للاسلام كما جاءت بها دعوته منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ٠

ان نظـرة الآخرين الى الاســلام أو الاســلام فى أعين الآخرين أمر يهمنا بالدرجة الأولى وهؤلاء وأولئك لن يقتنعوا أبدا بالأساليب التقليدية ٠٠ أى لا تستطيع أن تحدث غير المسلم بما تؤمن به لأن الايمــان لا ينقل ولكنه قادر على قبــول الأدلة العقلية التى تضىء الاســلام بسماحته ورحابته وقدرته على استيعاب جــوانب الحياة المختلفة وطقوسها المتعددة ونكون قاردين بذلك على أن نقــدم لغير المسلمين النموذج الحقيقى للدعوة العظيمة لهذا الدين الحنيف ٠



بين المساواة القانونية والمساواة السياسية(*)

(★) من محاضرة للمؤلف موضــــوعها (نحو حلول غير تقليدية لمشــكلات الفتنة الطائفية) بصــالون « احســان عبد القدوس الثقافى » بدار روزاليوسف فى ٢٩ ديسمبر ١٩٩١ ٠

موضوع الفتنة الطائفية من الأمور المثيرة فى هذا العصر ، ليس فقط فى دول العالم الثالث ، ولكن أيضا فى العالم المتقدم ٠٠ لأنها تتصل بما يمكن أن نسميه موضوع الأقلية ٠٠ التى أتحدث عنها هنا بالمفهوم العددى ٠٠ فالأقباط فى مصر أقلية عددية فقط ، ولا يعنى هذا أبدا أية اختلافات فى الأصول والجذور أو الشكل العام تجعلهم يختلفون عن غيرهم من المصريين ٠

والأقليات الدينية بشكل خاص هى أكثر الموضوعات اثارة ، لأنها تتصل بالمعتقد ٠٠ وهو أمر غير قابل للنقاش ٠٠ والجدل حوله غير حضارى لأنه يتعلق بحرية الايمان والتفكير ٠٠ بوجه عام نجد لديها نقصا فى الشعور بالأمان ، ينبع من الاحساس بأنهم أقلية فى مواجهة أغلبية ٠٠ حتى لو لم تكن هناك مشكلات ٠٠ ولا يتجاوز الأقليات عادة شعور القلق ، الا فى أفراد لديهم القدرة على التعامل مع الحياة العامة ٠٠ مثل نموذج مكرم عبيد ، الذى لم يقنع بدور طائفى محدود وخرج ليعبر عن ارادة شعبية عامة ٠ وكان سكرتيرا عاما لحزب الأغلبية ـ الوفد ـ لمدة تزيد على ١٥ عاما ٠

ومن خصائص الأقليات أيضا : الرغبة فى البعد عن الحياة العامة ، فهى تفضل غالبا الدخول فى مجالات الأعمال الفردية والنشاط الحر ، لكن توفر المناخ الديمقراطى يشد الأقلية الى الحياة العامة كما حدث فى فترة ثورة ١٩١٩ ٠ وهناك أيضا خاصية تميز « الأقلية » فليس لديها استعداد للخسارة والفشل فى معظم الأحيان لذا يتسلح أفرادها دائما بالكفاءة وتحسين الأداء ٠٠ وهذه سمة دائما ما نلحظها بين الأقليات مهما كانت دياناتهم أو قومياتهم ، ففى حين يبدأ المواطن العادى من الصفر ، يكون على المواطن من

الأقلية ان يبدأ من تحت الصفر فى مواجهة تيارات فكرية واجتماعية معينة ، كذلك من خصائص الأقليات السلبية والرغبة فى الابتعاد عن الموضوعات التى تسبب المشكلات ٠٠ لأن لديها احساسا بعدم توازن ميزان العدالة ٠٠ وأنا هنا أتحدث بشكل عام وليس عن مصر فقط ٠

ارتبـــاط بالأرض !

الأقبـاط ، لكى أكـون منصفا ، أقلية ذات ارتبـاط قـوى بالأرض ٠٠ ولا جدال فى ذلك ، وهو ارتباط جعل لهم فى التاريخ ادوارا تذكر لهم فى تأكيد الانتماء للحياة العامة المصرية والدفاع عن قضايا الوطن على مر العصور ٠

وقد واجه الأقباط اختيارات صعبة فى هذا ٠٠ فمثلا لم نسمع عن تيار عام للأقباط عضد الغازى الأجنبى ابان الحملات الصليبية، وفى أيام الحملة الفرنسية أيضا لم نجد اتجاها عاما باســتثناء الجنرال يعقوب ٠٠ الذى درب بعض الأقبـــاط على التعامل مـــع الفرنسيين ٠٠ فرفض ، وســحبت منه كل البركات التى يمـكن أن يمنحها له البطريرك المصرى ٠

وهكذا فان الأقباط فى مصر أقلية عددية فقط ، لا يمكن أن تجد فارقا بينهم وبين المسلمين بخلاف الأسماء الحادة التى تشير الى التاريخ الاســلامى أو التاريخ المسيحى ، ولا توجد مشــكلات طائفية حادة يمكن أن تنشب عنها خلافات بين المصريين ٠٠ كمـا لا يوجد تاريخان ٠٠ وفى الهند مثلا لا ينسى الهندوس عدة قرون من الحكم المغولى المسلم الذى طغى على الامبراطورية الهندية وغير الملامح فيها ٠٠ بينما فى مصر لا يوجد تعارض حقيقى للمصالح ٠٠

ولهذا فان احداث الفتنة التى تقع فى مصر تقع لأسباب تافهة ثم تغذيها أمور اخرى ٠

مسكنـــات

نحن غالبا ما نعالج احداث الفتنة فى مصر باحتفال خطابى ، ثم يقبل الشيخ المسلم قسيسا مسيحيا وينتهى الأمر على هذا الحال ٠٠ وهنا نحن لا نعالج المشكلة ٠٠ ولكن نواجه فقط بعض الحوادث العارضة ٠٠

ولقد أعطى الاســلام مرتبــة خاصــة لأهــل الذمة ، وتحديدا المسيحيين ٠٠ لكن هذا الأمر لم يطبق بشكل صحيح فى التاريخ الاسلامى ٠٠ مثلا عرفت الدولة الفاطمية فترات مختلفة للانتعاش والانتكاس فى التعامل مع أهــل الذمة وهى التى أدت الى خلافات مازالت لها بقايا حتى اليوم ٠

وهذه الأمور لا يتحملها الاسلام ، ولكن النظم التى حكمت ، والحكام الذين لم يفهموا الاسلام ، ونحن نعرف ان التنافس بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية جعل الفاطميين يفرضون مزيدا من الضرائب التى تضغط بشدة على الأقباط ٠٠ فحدثت القلاقل المعروفة فى ذلك الوقت ٠٠ وفى الدولة العثمانية ، كانت هناك سلطة حديثة العهد بالاسلام ٠٠ وكانت نموذجا لامبراطورية قامت على أساس دينى شكلى ، وأنا أعتقد ان كل مشكلات الأقليات تراكمت فى عهد الدولة العثمانية ٠

وكان دور الأزهر فى علاقته بالأقباط طيبا للغاية ، ولدينا عدد من المسيحيين المصريين تخرج فى الأزهر وتعلم فيه ٠٠ كما ان لدينا فى التاريخ الكثير من الحقائق الدالة على الانصهار الاجتماعى بين المسلمين والأقباط ٠٠ حتى ان المسلمين يقدرون الأقباط ويقولون فى بيوتهم : هذا قبطى ٠٠ « طيب وأمين » ٠٠

فتش عن الضغوط

أما أسباب بعض حوادث الفتنة الطائفية فهى مختلفة ٠٠ أولها طبيعة الضغوط الاقتصادية والسياسية ، ففى حالات الفراغ السياسى تظهر المشاكل الطائفية ٠٠ ان لم توجد هناك قضية عامة ، تظهر بديلا لها خلافات الانتماء الدينى ٠٠ ان أهالى قنا انتخبوا قبطيا وفديا وأسقطوا مرشح الأشراف فى العشرينيات لا لأنه قبطى، ولكن لأنه وفدى ٠٠ هنا انتفت الأسباب الدينية للاختيار ٠٠ فى اطار وجود قضية عامة ٠

بعد ١٩٥٢ ، ورغم كل انجازات الثورة ، حدث نوع من الانكماش لدى الأقلية والأغلبية على حد سواء ، كان عبد الناصر يفكر بمنطق سلطوى لتحقيق أفكار معينة ، وبسبب هذا الانكماش اضطررنا لأول مرة فى التاريخ ان نعين عددا من الأقباط فى البرلمان بعد أن دخلنا مرحلة من اختفاء المشاركة السياسية ٠

وقد رفضت الأقلية القبطية أثناء اعداد دستور ١٩٢٣ أن تخصص لها نسبة من المقاعد فى البرلمان ، واعتبرت هذا انتقاصا من قدرها ٠ ولكن « عبد الناصر » استبدل المشاركة السياسية « بالكاريزما » الشخصية ٠

ورغم المشكلة ، الا اننا لم نلحظ مشاكل طائفية لها وزن فى الخمسينيات والستينيات ، وسبب هذا ان عبد الناصر كان يحكم بمنطق وطنى مجرد وليس دينيا أو طائفيا ٠٠ والأقلية تقلق للغاية عندما يتلون الحكم بشكل دينى ٠

ثم جاء عصر الرئيس السادات ، الذى اتجه الى دعم بعض التيارات الاسلامية فى مواجهة اتجاهات ناصرية ويسارية معروفة ٠٠ فعل هذا بوعى أو بدون وعى ، لكننا بدأنا نشهد أحداث الفتنة

التى تبدأ فى بعض الأماكن ، ثم تهز مشاعر كل المواطنين فى انحاء الوطن ٠

ان الفتنة هى متنفس الضغوط الاقتصـــادية ، ونتاج طبيعة التعليم ومناهجه فى المدارس حيث « لم تعد تعنى المدرسة باظهار طبيعة التسامح بين الأديان فقد كنـــا فى المدارس لا نعــرف دين زملائنا الا اذا احتفلوا بمناسبة أو عيد ما » ٠٠ وهناك أيضا طبيعة التربية فى الأسرة ، نحن لم نهتم بأن نفهم أطفالنا أن الاختلاف فى الدين مثل الاختلاف فى الملابس ٠٠ نوع من الاختلاف المفهوم ، ولكنه ليس مادة للتنافس أو التصارع ٠

ثلاثة حلول

وهنـــاك اكثر من طريقة اعتمدت عليها الدول المختلفة لحل المشاكل الطائفية :

اولها الحل الدينى التوزيعى ، كما حدث فى لبنان ، عندما أرضى ميثاق ١٩٤٣ جميع الأطراف على حساب مصلحة الوطن ٠٠ فهو حل يوزع المقاعد ، ويعترف بالفتنة بدون علاجها ٠٠ وقد اثبتت ستة عشر سنة متواصلة من الحرب الأهلية فى لبنان انه حـل غير عصرى ٠

وربمـــا يكون من المناسب ان تعــود بعض الدول لحل دينى توزيعى وان تلجأ للشرائع السماوية بما فيها من سماحة لعلاج المشكلات ٠٠ ولكن المناخ غير مناسب لهذا لأنه يتطلب قدرا كبيرا من السماحة ، بل بالعكس المطلوب من الأغلبية رعاية الأقلية ٠٠ بأن تمنح الأقلية امتيازات زائـدة عن حـدها ، كنوع من الكرم السياسى ٠

هذا الحل ، يحتاج الى قدر كبير من التفاهم ، والتغيير فى طبيعة الدعاة على الجانبين ، وانتشار روح التسامح بين الناس •

● هناك أيضا الحل العلمانى الديمقراطى ، كما فى الهند ·· حيث يفخر الهنود بان الأقلية قدمت ثلاثة رؤساء للدولة ·· ولكن هذا الحل غير كامل ·· فهل يستطيع الهنود ان يختاروا شخصا مسلما فى منصب رئيس الوزراء ·· « السلطة الحقيقة فى الدولة »

اننا هنا يجب ان نفرق بين المساواة القانونية ·· والمساواة السياسية ·· « فالأقليات تستطيع المطالبة بالأولى وهـذا حـق ، ولكنها لا تستطيع دائما المطالبة بالثانية ·· ولذلك أسبابه » •

فالولايات المتحدة لا تستطيع تقديم رئيس يهودى ، وهى أكبر الديمقراطيات الغربية ·· كما لا يمكن ان يحدث هذا فى بريطانيا ·· لأن التمثيل السياسى هو عددى بطبيعته ·· وتلك نقطة يجب أن نناقشها بشجاعة ، فهذه مسألة تمنع أن يصل قبطى الى منصب رئيس الوزراء فى بلد أغلبيته مسلمون ما دامت الديموقراطية هى ظاهرة تصويت عددى كمى بالدرجة الأولى •

وعلى هذا لايجب ان يجد الاخوة غير المسلمين غضاضة فى الحرمان من بعض المناصب القيادية فى الدول التى لا يمثلون فيها أغلبية ·· لأن الأمر ينسحب أيضا على المسلمين وغيرهم فى الدول التى هم فيها أقلية •

ويتردد فى بعض المجالس الخاصة أحاديث عن شكوى للأقباط من مسائل خاصة بالمشاركة السياسية ، واقامة دور العبادة ·· وهـذه مسائل لا تحل بالطرق التقليدية ·· وترتبط بشيئين ·· أولهما ضرورة اعادة النظر فى كل القوانين المنظمة لحرية العبادة فى مصر ، والثانى ضرورة تسليم الاخوة الأقباط بأن المســاواة

السياسية غير قائمة ، وان ما يجب المطالبة به هو المساواة القانونية فى ظل المشاركة السياسية ·

● وهناك أخيرا الحل الثقافى طويل المدى ويبدأ بضرورة النظر فى أساليب التربية والتعليم وبرامج الاعلام والدعاية بالنسبة للدينين معا ·· لأن المخاوف والتعصب موجودة لدى المتطرفين ·· والنموذج الذى نطالب به كحل غير تقليدى بين الحل التوزيعى والحل العلمانى ·· هو التفهم الصحيح لروح الأديان ·· وفى مصر تقاليد راسخة للتسامح لا نظير لها ·

ان المشـــكلة التى نتعرض لهـــا هى بعض عمليات الشحن والدس والتى تؤدى الى عثرات طائفيـــة ·· والحل يجب ان يبدأ بالتربية منــذ السنين الأولى لدى أبنــاء الدينين خصوصا فى بلد يسمح تراثه الثقافى وتجانسه السكانى بكل محاولات الانصهار والتوافق والانسجام الوطنى ·



الاســلام فى عالم متغير(*)

(★) من محاضرة للمؤلف أمام شباب العالم الاسلامى فى معسكر أبى بكر الصديق فى ٢٩ أغسطس ١٩٩٢ ·

اننا نعيش فترة حرجة وحاسمة من تاريخ العالم اذ التغيرات متلاحقة ، والتطورات متتابعة على نحو يغرى بالتأمل ويثير كل نوازع التفكير حيث يثور السؤال دائما :

● أين نحن فى العالم الاسلامى ، وأين نحن فى العالم النامى بوجه عام من هذه التطورات التى تكاد توحى بأن حربا قد جرت وتلك هى نتائجها ؟

هل يخفى على الشباب ان ما حدث فى العامين الماضيين كان بمثابة تصفية كاملة لكل نتائج الحرب العالمية الثانية ؟ .. وهى أيضا تصفية لصراعات طويلة بين ايديولوجيات مختلفة تركت بصماتها على شكل العالم فظهرت دول واختفت أخرى وبرزت كيانات واختفت كيانات أخرى ؟

اذن الأمر يحتاج الى وقفة طويلة نناقش فيها بكل الصراحة والصدق ما يدور حولنا ونقيم دورنا فى هذا العالم على ضوء التطورات الدولية والاقليمية .

ان أهمية الموضوع اذن تنبع مما نشعر به اليوم حيث يتردد السؤال فى صمت أحيانا وفى علانية أحيانا أخرى :

● هل يا ترى نحن فى مواجهة حصار جديد يطبق على أطراف العالم الاسلامى ويعيد الى الأذهان ذكريات المواجهة التى جرت فى العصور الوسطى بين الشرق المسلم والغرب المسيحى ؟

أيضا يثور السؤال :

● هل يا ترى هذا العالم الذى قبل التعايش بين القوميات ، والتصالح بين الأيديولوجيات يفتش اليوم فى تاريخه عن هـــذا النوع من الصراع الدينى الذى ان صح توقعنا له فسوف تكون له نتائجه الخطيرة والحاسمة على خريطة العالم ومستقبل شعوبه ·

تحليل أنواع الصراعات

● الصراعات بين القوميات عرفتها الانسانية منذ بدأ شكل مجتمع الدولة فى عصور الانسان السحيقة وتبلورت شخصية الدولة القومية ودخلت فى مواجهات حاسمة مع قوميات أخرى ·

● الصراعات الأيديولوجية عرفتها الانسانية فى فتـــرات مختلفة من حياتها وتركزت أساسا حــول صراع الأفكار والمبـادىء وتبنى شعوب معينة لأفكار فى مواجهة شعوب أخرى الأمر الذى أدى الى تكتلات دولية عرفنـــاها فى فترات طويلة على مـــدى تاريخ الانســان ·

● صراع الطبقات ايضـــا صراع اجتمـــاعى له طابعـه واختلفت النظريات فى تفسيره بين غلاة المتشـــددين فيه يسارا أو يمينا ولكن كانت النهاية دائما أن المصالحة الاجتماعية بين الطبقات لا تتأتى الا لفترات وجيزة فى تاريخ الانسان يتحقق فيها التوازن بين طبقات المجتمع المختلفة ·

● ● أما صراع الأجيال فهو الصراع المفتوح عبر التاريخ · لأنه صراع بين القديم والجديد ·· بين حكمة الشيوخ وبين حمـاس الشباب بحيث تبدو مسيرة الحياة فى النهاية مزيجا بين الاثنين ·

يا ترى هل مثل هــذه الصراعات كتب لهـا اليوم أن تختفى وتتوارى ؟! •• وان تظهر على الساحة صراعات من نوع جديد وكأن الانســـانية تكرر عذاباتها من جديد وتقدم على الساحة صورة من الماضى بكل مآسيه وآلامه •

نرجو ألا يكون هذا التصور صحيحا وان كانت هناك شواهد قد لا توحى بانعدام هذا التصور •

اننا نرى اليوم أن الخلفية التاريخية للصراع الطويل والمواجهة الحادة التى عرفها الانسان مع خصومه تكاد تعود مرة أخرى بشكل مختلف ويتساءل المرء :

● كيف يا ترى نفسر أن النسبة الكبرى من صراعات العالم اليوم تقع على الأرض الاسلامية •• والأرض العربية أيضا ؟!

● كيف نفسر ما يجرى من صراعات تمتد على خريطة الدنيا وأركانها الأربعــة بحيث تستأثر الأرض الاسلامية بأكبر قدر من هذه الصراعات والمواجهات •• وغير بعيد هنا ما يدور فى البلقان وما يجرى فى الصومال •• وما نتابعه فى أفغانستان حتى أزمــة الخليج بتداعياتها كانت ولا زالت على أرض عربية أسلامية ؟

● يا ترى هل هذا مجرد مصادفة لأحداث التاريخ مردها يعود الى طبيعة الشعوب الاسلامية ومعاناتها أم أن الأمر تحـكمى وموجه من جانب القوى المسيطرة على عالم اليوم فى ظـل شـكله الجديد الذى يسمح لنا بالحديث عن نظـــام عالمى جديد ، ولهـذا فحديثى يتركز حول موضوع واحد : هو موضوع الاسلام فى عالم متغير •

الاسلام .. أرحب الرسالات

الاسلام كما تعلمون ارحب الرسالات السماوية وأكثرها اتساعا وأكثرها ثراء بكل معانى تنظيم الحياة .. وتحديد مراسم التطور البشرى فى مراحلها المختلفة بحيث أصبحت للاسلام نظرة فى كل ما يجرى على الأرض من حياة يومية أو نظرة مستقبلية .

فاذا كان الأمر كذلك .. فكيف نفسر هذا الذى نحن فيه ؟ هذا الارتباط الواضح فى ذهن غير المسلمين .. بين الاسلام والتخلف.. بين الاسلام وغياب الحريات .. بين الاسلام والتدهور الاقتصادى .. بين الاسلام وتبديد الثروات .. بين الاسلام وخسران المعارك .

ونتساءل : هل هذا هو الاسلام ؟

لابد أن شيئا ما يقع فى جانب معين وتتمركز فيه الحقيقة بجوهرها الخفى !!

الاسلام بشريعته السمحاء وجوهره الحنيف يبدو أبعد ما يكون عن هذه الممارسات التى أدت نتائجها الى ما يعانى منه المسلمون اليوم .. الاسلام بكل مشكلات المسلمين المعاصرة وآفاق المستقبل المغلق أمامهم والتى تؤدى الى نتيجة واحدة يجب أن تكون لدينا الشجاعة لمواجهتها .. ولا يجب أبدا أن نمضى فى ترديد مقولات طالما رددناها لقرون عديدة سمحنا فيها لأنفسنا بأن نسبح ضد التيار .. لا تيار العصر وحده ولكن تيار روح الشريعة ذاتها .

ان الاسلام أكثر الشرائع تقدما ورغبة فى التطور وتأكيدا لقيمة العمل ورغبة فى التفوق وحثا على الانتاج ودعوة الى التميز والامتياز .. الاسلام بكل ما اجتمعت لديه من صفات وما ترك لدينا من ميراث ثقافى وروحى يبدو اليوم فى مواجهة حادة مع خصومة

أكثر من أى لحظة مضت فى تاريخه على امتداد أربعة عشر قرنا أو ما يزيد ، انه يبدو اليوم على أعتاب مواجهة حقيقية نتيجة للصور التى بدأت تتبلور عن المسلمين فى أعين غير المسلمين ٠٠ تغذيها أحيانا دعايات مسمومة أو آراء مرجفة أو محاولات للمبالغة وتصوير الأمور على غير ما تكون عليه ٠

الاسلام والعنف السياسى

الربط بين الاسلام والعنف السياسى ٠٠ والربط بين الاسلام والاغتيالات وخطف الرهائن وسفك الدماء والخروج عن روح الاسلام التى يعرفها غير المسلمين ، ممن اطلعوا على ثقافة العرب المسلمين وآدابهم ، وحضاراتهم ٠

اذن الأمر فى ظنى أن هناك تباعدا حقيقيا بين روح الاسلام بكل ما تحمله من معانى وما تدل عليه من آراء وأفكار واتجاهات وبين الممارسات الحقيقية للشعوب الاسلامية !

وكأن عبارة الامام المستنير محمد عبده تطل علينا صباح مساء حين ذهب الى الغرب ورأى فيهم من خصائص الالتزام بالنظام والنظافة والحرص على صدق الكلمة والوفاء بالوعد ما جعله يقول : لقد وجدت هنا مسلمين بلا اسلام وتركت هناك اسلاما بلا مسلمين ٠

ان جوهر هذه العبارة لا يزال حتى اليوم يعطى الصورة الحقيقية لمواجهات العالم الاسلامى مع غيره ٠٠ ويصور بحق طبيعة المعاناة التى نواجهها اليوم على أرض المسلمين فى مختلف بقاع الدنيا ٠

ان صورة الاسلام نحن كلنا مسئولون عنها بالدرجة الأولى ٠٠ ولا نعفى أحدا من المسئولية واذا أردنا أن نخرج من دائرة الظلام

وان نخرج من عنق الزجاجة فلابد أن نواجه الحقائق فى صراحة وفى وضوح ·· وان نتخلى عن ازدواج الشخصية التى جعلتنا نردد فى قرون طويلة عبارات فى العلن تختلف عن ممارساتنا الحقيقية وعن تصرفاتنا اليومية ·

دعونا نعترف بأن الصراعات التى تجرى اليوم على أرض المسلمين انما هى نتاج لممارسات خاطئة فى سنوات طويلة ندفع اليوم (الفاتورة) أو الحساب لها بشكل لم يحدث من قبل !

مسئولية المسلمين

● هل يا ترى هذه النظرة الى الاسلام هى وليدة هذه الممارسات الخاطئة والتجاوزات لروح هذا الدين الحنيف فحسب ·· أم أن هناك شعورا يمثل ميراثا تاريخيا طويل المدى لأصداء المواجهات القديمة بين الاسلام وبين خصومه !؟

الأمر عندى هو الاثنان معا ·· ولكن نحن مسئولون بالدرجة الأولى عن الجزء الذى يمثل الأبلغ الاعم من أسباب هذه المواجهة بكل وضوح ودون مواربة ·

لقد كان تاريخ المواجهة بين الاسلام وبين خصومه مركزا أحيانا فى الجزء النظرى وتركز أغلبه فى جزء عملى فأدى الى مواجهات طويلة عرفناها منذ العصور الوسطى حتى اليوم ·

الا أن فضل العرب المسلمين الذى ترك آثاره على أوروبا فى عصورها المظلمة السحيقة ودور العرب المسلمين بل ودور المسلمين بوجه عام فى الدراسات الانسانية والتطبيقية ·· كان لكل ذلك آثاره فى تقديم الاسلام الحقيقى للغرب بشكل قد يؤدى الى نوع من الحساسية ولكنه يقبل فى النهاية درجة من درجات التعايش التى كان يجب لها أن تستمر وأن تطول ·

ولكن الذى حدث فى نصف القرن الأخير على الأقل ٠٠ ان نغمة الأصولية الاسلامية فى العالم الاسلامى لم تمض على النحو الذى يتواكب مع روح العصر ٠٠ أقول أن (النغمة) لم تمض على نفس الموجات التى تتناغم مع روح العصر ومتطلباته ٠

نعم هناك بحث فى الجذور وهناك عودة الى الأصول فى كل حضارات الدنيا وفى مقدمتها بالطبيعة الحضارة الاسلامية العربية ٠٠ ولكن هذه العودة بدت عودة ورقية كاملة ان جاز التعبير ٠٠ عادت الى الماضى تمتدح الأصول وتتباكى على الجذور دون أن تدرك أن السباحة ضد التيار أمر غير مجد ، فاذا أردنا التقدم فعلينا أن نأخذ من الأصول والجذور ما يدفعنا الى الأمام لمواجهة حياة العصر وتطوراته ٠

معنى الجهاد فى الاسلام

● ان مفهوم الجهاد ما زال غامضا حتى فى تفسيره أن الأمر اختلف اختلافا بينا لذلك يجب فتح باب الاجتهاد فى الفكر قياسا وتأملا ٠

ان الجهاد ايضا يخضع لعوامل الزمان والمكان ولا تحكمه قواعد ثابتة صماء تجعله فرضا دائما دون مراعاة لظروف معينة ٠٠ وكما قلت من قبل « فالمسلمون » مطالبون بالأخذ بنسبية الأمور ومواجهة الحقائق على النحو الذى يسير عليه العالم ٠

اننا لسنا وحدنا فى عالم اليوم ٠٠ ولسنا وحدنا صانعى سياسات وواضعى أسس ومحركى أمور ٠٠ نحن جزء هام وحيوى من العالم الذى يعيش فيه مئات الملايين غيرنا ٠

والجهاد الذى يستهوى النفوس ويشحذ العزائم ويدفع المسلمين بكل الحماس الى ساحات المواجهة ·· هذا الجهاد له مفهوم نسبى أيضا ·· ان الجهاد لم يعد سيفا أو سلاحا ·· لم يعد معركة عسكرية أو مواجهة عنيفة ·

الجهاد فى ظنى بالنسبة للمسلمين الآن هو التفوق العلمى فى جميع المجالات والتوجه لاقامة الدولة العصرية القوية سياسيا وثقافيا واقتصاديا والتى لا تتعارض مع مبادىء الشريعة الاسلامية ان الاسلام دعا الى التحرر والحرية بكل معانيها الروحية والمادية وهذه الدعوة لم تكن دعوة حديثة لظروف زمان ومكان معين ولكنها تركت للأمة الاسلامية القيام بأساليب هذا الجهاد وبكيفيته ولزومه وفقا لظروف كل زمان ومكان ·

● فالجهاد الاسلامى اليوم هو جهاد من نوع مختلف ·· جهاد يدرك طبيعة التغيرات من حولنا ويلم بالظروف فى عالمنا ويتحرك بوعى وواقعية ·· فيفكر اليوم ويؤجل الى الغد ·· ويقدم ويؤخر ويعطى أولويات ويسمح ببعض التجاوزات من أجل تقدم المسيرة الاسلامية فى عالم اليوم ·

اما أن نصور الجهاد على حسب الاحداث الفردية للعنف السياسى هنا وهناك فتلك ضربة قاصمة لروح الاسلام الحنيف وسماحته العظيمة ·· ان لاسلام دعوة الى المنعة والى القوة والى الأخذ بأسبابها ·· الاسلام جعل للعلم مكانة عالية ·· واعتبر التفكير فريضة اسلامية ··

ولذلك فانه يجب علينا ان ندرك طبيعة التحدى الذى نعيشه ولا يخفى علينا وهذا أمر لا يجب أن نتجاهله اننا نعيش عصر الحضارة الغربية المسيحية وهى صاحبة التفوق الفنى والتكنولوجى فى عالم اليوم ، بينما كانت لنا وللمسلمين الأوائل ارهاصات

التقدم العلمى والكتابات المبكرة فى كل فروع المعرفة ودراستها ·· ألم نعرف ابن سينا والفارابى وابن رشـد وغيرهـم من فلاسـفة الاسلام الذين أثروا فى عصورها الوسطى والذين نقلت مؤلفاتهم فعبرت الأندلس وعبرت صقلية وغيرها من مراكز الالتقـاء بين الحضارتين ·· فكانت نورا وضياء للغرب فى سنوات الظلام ·· وكانت بمثابة فتوحات علمية فى عالم الغـرب الـذى كان يعيش بدايات عصور التنوير فى مستوى أقل من العرب ·

ولنتساءل : كيف نحسم هـذه المواجهة الآن مـع الغرب ·· بمعنى كيف يمكن لنا أن نتعايش مع الغرب ؟

لابد بحق أن نأخذ بكل عناصر الاستقرار السياسى والارتقاء بالانتاج سياسيا واقتصاديا وحضاريا وثقافيا ·· وتقديم صـورة المسلمين بالصورة التى أرادها الله حينما بعث الرسول عليه السلام يبشر بشريعة سمحاء رحبة تستوعب التطورات ولا تقف جـامدة أمام ايقاع الحياة ومتغيراتها ·

ان النبى عليه الصلاة والسلام قد قابل أعداءه وفاوضـهم والتقى بهم وخاصمهم ودخل فى عهود واتفاقيات وخاض حـروبا وعاش حياة سياسية بالدرجة الأولى ·

النظرة الى الاسـلام

يجب أن نعى اليوم أن النظرة الى الاسـلام فى الغرب ـ كمـا لا يخفى عليكم ـ ·· فيها كثير من الحـذر والتخـوف فى السنوات الأخيرة نتيجة لربط الاسلام بافكار التطـرف والعنف والرغبـة فى التغيير بالقوة ·· ونتيجة الاحساس الخاطىء أن الاسلام يتطـلع الى نوع من الانغلاق والعزلة عن العالم وتغيراته وتطـوراته ··

لقد تم اختفاء الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتى أيضا ككيان سياسى أو ما كنا نسميها بالكتلة الشيوعية مما جعل التفرغ كاملا لمواجهة ذلك الكيان الصلب فى العالم والذى عرفته أوروبا الغربية فى القرون الوسطى بمواجهات الحروب الصليبية • ولقد بدأت ظلال الأحداث تعود من جديد لفكر الغرب المعاصر •• وبدأ هنــاك نوع من الحــذر والتخوف قد يضر بكل قضايانا وقد يعوق كل مسيرتنا •• ولا مكان للجهاد بمعناه المطلق الذى يصل الى حد مناطحة القوة بالقــوة بغير الأخذ بأسباب القوة •• كأننا نضرب رؤوسنا فى الحائط أو ندفنها فى الرمال هروبا من واقع يمكن أن نواجهه •

أما حديثنا عن الجهاد بلا وعى وبلا خطة وبلا تطور فسوف يؤدى فى النهاية الى نكسة حقيقية نرجو الا تصيب العالم الاسلامى بما لا يجب أن يتعرض اليه خصوصا وأن هــذا العالم يملك من الثروات الطبيعية والبشرية ما يجعله مطمعا للقــوى الكبرى •• بالاضافة الى أن مواقعه الاستراتيجية فى قلب العــالم •• ســواء بالنسبة للعــالم العــربى أو الاســلامى تجعــل شــهوة القــوى الكبرى تجــاهه فى تزايد مستمر وهناك دعوة الى تقليص حدوده وأخرى بربطه بالغــرب •

لقد سمعنا من يقــول ان الاسلام يقــر الديكتاتورية ويعادى الديمقراطيات نتيجة وجود نظرية اسلامية فى الديمقراطية لا يقدر المسلمون على تطبيقها ولا يأخذون بأسباب الديمقراطية الحديثة •

ورأينا من يقول أن الاسلام يقر التخلف بدليل أن دائرة العالم الاسلامى تكاد تقع كلها فى العالم النامى ويقع جزء منها فى العالم المتخلف تماما •

ورأينا من يقول أن الاسلام يقر التخلف ويجبر الآخرين بالقوة ويفرض العقيدة على غير المسلمين خصوصا بالنسبة للأقليات فى

الدول الاسلامية وهى قضية خطيرة للغاية وسلاح ذو حدين ٠٠ وهى نظرة تختلف عن نظرة الاسلام الذى دعا الى التراحم والعـدل والمساواه واعطاء الفرصة والتكافل السياسى والاجتماعى ٠

مواجهـة أسـباب التخلف

ان هذا التشويه المتعمد يدعونا الى ضرورة مواجهة كل أسباب التخلف ليأخذ الاسلام مفهومه الحقيقى الذى يدفع بالعالم الاسلامى الى الأمام ٠

ان الجهاد اذا كان فريضة اسلامية فهو جهاد العقل ٠٠ جهاد القلب ٠٠ جهاد القلم ٠٠ جهاد المعرفة ٠٠ جهاد الفكر ٠

ليس بالضرورة أبدا جهاد السلاح أو العنف ٠٠ قد تكون هـذه احدى أساليبه فى مرحلة معينة من التاريخ ٠٠ ولكنها ليست أبدا هى الصورة الوحيدة المستقرة التحكمية لمفهوم الجهاد حتى تصبح أداة وحيدة لتفسير معنى الجهاد على المستوى الدولى والاقليمى ٠٠ وعلينا أن نستوعب مفهوم عصر التعايش ٠٠ ونستفيد من نظرية الضرورة فى حياة الأمم ٠

الاسلام دعا الى التواصل والى رعاية أهل الذمة والتكافل الاجتماعى وأمامنا أمثلة رائعة من النبى عليه الصلاة والسـلام والصحابة ٠٠ ونعلم كيف أعطى الاسـلام أهـل الذمة الضمانات القانونية والرعاية فى كل مراحل الحياة والتطور ٠٠ مما جعل لهم كل الحقوق والواجبات ٠٠ وهو الاسلام الذى دعا الى الموعظة الحسنة والأخذ بالحكمة والابتعاد عن العنف ٠٠



مصر فى عالم متغير(*)

(*) مترجمة عن محاضرة عامة للمؤلف فى « القاعة الشرقية » بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى ١٩٩٢/١١/٣٠ .

تمثل التحولات الكبرى فى عالم اليوم تحديا جديدا أمام الدول النامية خصوصا تلك التى تلعب دوراً محوريا فى اقليم جغرافى معين ، ولعل مصر واحدة من أبرز النماذج لذلك فهى دولة محورية بالنسبة للشرق الأوسط وأفريقيا وربما لاقليم جنوب البحر الأبيض المتوسط أيضا وهذا يفرض علينا التركيز فى هـذه المرحـلة على دراسة التأثيرات الحالية والقادمة على طبيعة الدور المصرى اقليميا ودوليا وهو دور له تاريخيا أدواته السياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية ، وحقيقة الأمر أن تلك التأثيرات تأخذ أبعادا مختلفة بعضها عالمى والبعض الآخر اقليمى ويمـكن التعـرض لهـا فى مجموعتين من المؤشرات هى :

أولا : المظاهر الدولية :

١ ـ اختفاء الكيان السياسى الدولى المسمى بالاتحاد السوفيتى والتحولات الجذرية فى سياسـات دول أوربا الشرقية وسـقوط التطبيقات الماركسية بها والتوجه نحو التعددية والانفتاح ، كل ذلك أدى الى الانتقال من ظاهرة الثنائية فى العلاقات الدولية الى صياغة ظاهرة القوة العظمى الوحيدة فى العلاقات والتنظيم الدوليين وهو ما يبدو واضحا على الخريطة السياسية لعالم اليوم حتى الآن على الأقل ٠

٢ ـ اتخاذ الولايات المتحـدة الأمريكية الدور المتوقع للقوة العظمى الوحيدة بمحاولة ترتيب الأوضاع فى الأقاليم المختلفة بما يتفق مع مصالحها الحالية والمستقبليـة مسـتخدمة فى ذلك كل

امكانياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية بدءا من محاولة التأثير على الأمم المتحدة واستخدامها كمظلة لتحقيق أهدافها وحماية حلفائها مرورا بقضايا المعونة الاقتصادية أو حقوق الانسان أو مشكلات تلوث البيئة وصولا الى العمل العسكرى المباشر عند اللزوم وتلك كلها أدوات فى يد صانع قرار السياسة الخارجية الأمريكية يلوح بها وفقا لمقتضيات كل موقف والظروف المحيطة به : فالدور الأمريكى هو تكرار لدور للدولة ذات السيطرة والتى عرف تاريخ العالم نماذج لها منذ سيطرة الامبراطورية الرومانية على منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط والذى كان يطلق عليه صفة (بحيرة رومانية) فى ظل مفهوم خاص للسلام الرومانى Pax Romana ، وقد تكرر نفس الدور الاسبانى والبرتغالى فى عصر الكشوف الجغرافية ثم الدور البريطانى فى عصر السيطرة البحرية واتساع الظاهرة الاستعمارية منذ عدة قرون ٠

٣ ـ يمثل انتهاء مرحلة الحرب الباردة فصلا جديدا فى العلاقات الدولية أضر بشكل مباشر بالكيانات السياسية الصغيرة والمتوسطة فيما كان يطلق عليه العالم الثالث ـ ومصر منه ـ فلم يعد من الممكن توظيف أجواء تلك الحرب الباردة لخدمة سياسات ومصالح تلك الدول النامية ولقد كانت فترة ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى مطلع السبعينات هى فترة احتدام الحرب الباردة ولعلنا نتذكر من مظاهرها الانذار السوفياتى فى حرب السويس ١٩٥٦ وازمة الحصار على كوبا عام ١٩٦٢ بل أن أطراف الصراع العربى ـ الاسرائيلى كانوا يضعون فى حساباتهم خلال تلك الفترة طبيعة الاستقطاب الثنائى وانقسام العالم الى معسكرين وأجواء الحرب الباردة السائدة حينذاك وامكانية الافادة منها ٠

٤ ـ ظهور اتجاه سائد له مؤشراته المتتالية تتجه فيه معدلات التجارة الدولية وحركة رؤوس الأموال وعائدات الثروات الطبيعية

فى غير صالح الدول النامية على نحو يزيد من الفجوة بين الأغنياء والفقراء أو بين ما نطلق عليـــه الشمال والجنوب ، ومصر تدفع مع غيرها من الدول النامية ثمنا محتملا لهذا الاتجاه المتزايد ·

٥ ـ ان استخدام اصطلاح « النظام العالمى الجديد » يلخص فى حد ذاته طبيعة التغيرات التى حدثت والتحـولات المنتظرة ، فالواقع أن التعبير لا يضيف شيئا ، فلا يوجد نظام عالمى قديم وآخر جديد ، ولكن حقيقة الأمر هو ذلك التحول الذى يطرأ على الخريطة السياسية للعالم فى فترة معينة ليترجم على الواقع طبيعة التغيير الذى حـدث فى مراكز القوى واسـتتبع بالضرورة اعادة ترتيب الأوضاع الدولية وفقا لذلك ·

ثانيـا : الأبعاد الاقليمية :

١ ـ مواصلة المحاولة من اجـل التسوية السلمية الشـــاملة لوضع حد للنزاع العربى ـ الاسرائيلى وحصول الفلسطينيين على حقوقهم المشروعة وهو ما يضع المنطقة فى حالة ترقب دائم لأسلوب مسيرة السلام وطبيعة العقبات التى تعترض طريقها ونوعية العثرات التى تواجهها وسوف يظل دور مصر العربى محكوما بجهودها من اجل السلام تتويجا لتضحياتها فى الحرب ·

٢ ـ تمثل حرب الخليج الثانية وتحطيم الآلة العسكرية للعراق وفرض الحصار على شعبه أزمة ثقة حالية يصعب تجاوزها الى جانب ما يشعر به المواطن العـراقى من مرارة ليس فى الغـالب مسئولا عن اسبابها ، كما أن التضامن العربى قد أصيب فى مقتل منذ ذلك الحين واصبحت محاولات رأب الصدع بين الأشقاء أو جمـع الشمل العربى فى حاجة الى جهـود مخلصـة وقرارات شـــجاعة وتغليب للمصلحة العربية العليا على سواها ·

٣ ـ تنامى ظاهرة التطرف الدينى وتصاعد حدة العنف السياسى بصورة اجتاحت عددا من الدول الاسلامية وتركت بصماتها على استقرار أنظمة الحكم فيها وطرحت بشكل مكثف ضرورة توظيف كل الامكانات المتاحة من أجل وضع حد لتداعيات تلك الظاهرة ومخاطرها على المستقبل الاسلامى والعربى ، ولا شك أن احتواء تداعيات العنف السياسى المستند ـ بغير حق ـ الى الأصوليه الاسلامية سوف يمثل التحدى الحقيقى لطبيعة النظم السياسية الحاكمة وامكانية التعبير السليم عن تيار الأغلبية لدى شعوبها ٠

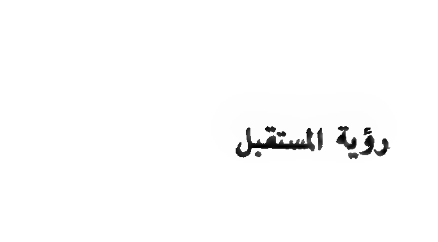
٤ ـ ان تفاوت توزيع الثروة العربية وهو يمثل قضية ذات حساسية خاصة منذ غزو العراق للكويت واختزال الحديث عن الأمن القومى العربى ليصبح فقط هو الحديث عن أمن الخليج ٠٠ ان طرح هذه القضية يزيد من أزمة الثقة العربية ـ العربية ويلقى على كاهل القيادة المصرية عبئا اضافيا فى أية محاولة لتنقية الأجواء العربية وفتح منافذ العمل القومى والخروج به من المأزق الراهن ٠

٥ ـ ان طبيعة الحوار العربى لقوى مختلفة ذات توجهات ومصالح قد تتعارض مع الطرح القومى لأمة عربية واحدة من أجل مصلحة عليا لشعوبها ٠٠ ان طبيعة ذلك الحوار خصوصا بالنسبة للنموذج الايرانى ثم النموذج التركى وان كان بدرجة أقل تفرض على القرار العربى أن يسعى لقدر من التجانس والانسجام فى مواجهة القوى ذات توجهات تاريخية تتعارض أحيانا مع مفهوم « العروبة » رغم التقائها تحت لواء « الاسلام » ٠

٠٠ هذه باختصار مجموعتان من العوامل أولها دولى وثانيها اقليمى تضع القرار المصرى ـ وهو قرار محورى يمثل المتغير المستقل

فى المنطقة ـ فى وضع صعب وأمام تحديات عديدة تجعل من مناخ الحريات والتعددية السياسية واحترام حقوق الانسان ، تجعل منها كلها ركائز للديمقراطية التى يجب أن نحـافظ على وجودها فى مواجهة تصاعد حدة العنف السياسى لأن مواجهته يمكن أن تتحق بكفاءة فى ظل نظام ديمقراطى يفصـل بين الممارسـة السياسية السليمة وبين أعمال الشغب غير المسئول والعنف الذى لا يعبر عن روح العصر وتقاليده السياسية .





رؤية المستقبل

تؤكد كل محاولات استقراء التاريخ الحديث وشواهد تطور المجتمعات المعاصرة أن الارهاب ظاهرة اجتماعيـــة ذات أســـبابه اقتصادية وسياسية وثقافية تعبر عن اتجاه معين أو تيار بذاته ، ودون النظر الى مبررات ذلك النوع من العنف الجماعى أو محاولة تقييم دوافعه بمعيار أخلاقى فانه يتعين علينا أن نتناول الظاهرة باعتبارها ظاهرة مرضية تدل على افتقاد الصحة النفسية للمجتمع وتحتاج الى تحليل علمى موضوعى يربط المقدمات بالنتائج ويصل من متابعة الأعراض الى أسلوب العلاج ..

وبعد ان قلبنا بعض الصفحات الموجزة فى ملف هذه القضية التى ترتبط باستقرار الوطن وأمن المواطن ، فان التساؤل يطرح نفسه وبالحاح فى هذه المرحلة بالذات ، كيف يمكن أن تواجه مصر ـ شعبا وحكومة وقيادة ـ تيار التطرف العنيف الذى يمثل الخطر الداهم على الحاضر ويحاول التهام المستقبل أيضا ؟ ان المواجهة فى تقديرى لا تقف على محور واحد ولا تقتصر على أسلوب بذاته انما هى تقوم على خطة شاملة بامتداد جبهة عريضة تحتوى الوطن كله بمواطنيه وهيئاته ، بمثقفيه وأحزابه ، بكل فرد فيه مهما اختلفت المواقع أو تباينت المناصب لصياغة فكر مشترك يبدو وكأنه حديث الى النفس أو تفكير بصوت مرتفع حتى يمكن أن نسجل المحاور التالية :

أولا : جدوى الأسلوب الأمنى فقد يكون أمرا لا غنى عنه فى المدى القصير ولكنه وحده لا يمثل أبدا أسلوبا وحيدا للمواجهة ، فالظاهرة ذاتها ليست ظاهرة أمنية ، قد تكون كذلك من حيث آثارها

ونتائجها ، ولكنها من حيث الأسباب والدوافع ظاهرة اجتماعية تقف وراءها السياسة والاقتصاد والثقافة وغيرها من عوامل التكوين النفسي للانسان المعاصر والحل الأمنى نوع من المواجهة المؤقتة التى قد تعطل من حركة تيار العنف أو توقف من تصاعده ولكنها لن تقضى وحدها عليه ، فالارهاب ليس جريمة عادية يقع فاعلها فى يد الشرطة وبذلك تتم الرواية فصولها ، انما هو أمر أبعد من ذلك حيث يبدو مثل جبل الثلج فى المياه المتجمدة الجزء الظاهر منه أقل بكثير من ذلك الجزء الذى يختفى تحت سطح المحيط ·· والجهاز الأمنى يحتاج بالضرورة الى روافد متجددة من المعلومات عن تحركات الطرف الآخر ونواياه ويحتاج أيضا الى قنوات اتصال سريعة تمكن الجهاز من اتخاذ ردود فعل لحظية فالتوقيت الصحيح عنصر اساسى فى المواجهة الأمنية السليمة ·

ثانيا : هناك من يتحدث عن المواجهة العنيفة الشاملة وهى تقوم على اجراء أمنى حاد يعتمد على استخدام اقصى درجات القوة لسحق تيار العنف فى فترة زمنية محدودة وهذا الأسلوب يعتمد على قاعدة عريضة من المعلومات الموثوق بها عن رموز تيار التطرف وجهازه التنفيذى أى لابد أن يكون تنظيم الطرف الآخر معروفا ومكشوفا أمام جهاز أمن الدولة ، ولقد استخدم عبد الناصر هذا الأسلوب فى هجمة ١٩٥٤ ضد القيادات التاريخية ورموز حركة الاخوان المسلمين ثم عاود نفس الهجمة فى ١٩٦٥ ، كذلك استخدمت دولة عربية شقيقة هذا الأسلوب الحاسم وبطريقة اكثر عنفاً ضد ذلك التيار المتطرف بعد ان تصاعد تأثيره على الاستقرار السياسى هناك ، وواقع الأمر أن مثل هذا الأسلوب يصعب تحقيقه تحت مظلة الديمقراطية وسيادة القانون وضمانات حقوق الانسان ·

ثالثا : أسلوب المواجهة بالديمقراطية والاصلاح السياسى والدستورى وهو أمر يحتاج بالضرورة الى تجاوب كامل من الطرف

الآخر ، اذ عليه أن يعلن صراحة نبذ العنف كأسلوب لفرض الرأى أو تغيير شكل السلطة ، ثم عليه أن يقبل بالديموقراطية وفقا للمنهج الحديث لها بكل ما تحمله من خصائص فى مقدمتها مفهوم تداول السلطة ، ثم عليه بعد ذلك أن يسلم بأن الأمة هى مصدر شرعية الحكم وأن الدين يمثل الجانب الروحى المقدس فى حياتنا ولا يجب أن ننزل به الى دنيا الواقع اليومى وحلبة الصراع السياسى، عندئذ يكون الحديث عن فتح قنوات جديدة للديموقراطية أمرا منطقيا وتكون مساحة المشاركة السياسية أرحب بكثير بحيث تحتوى التيارات المختلفة فى الشارع السياسى ٠

رابعا : ضرورة ملء الفراغ السياسى وحشد طاقة الأحزاب والتنظيمات الشعبية لتكون أكثر فعالية وتأثيرا فى حياتنا اليومية ، ان على الأغلبية الصامتة أن تخرج الى الساحة المكشوفة باتخاذ موقفها الواضح فدور المتفرج قد يحمى صاحبه فى المدى القصير ولكنه سوف يكون ضده على المدى الطويل ، والحياة الحزبية فى بلادنا مطالبة بتنشيط دورها وتوضيح فكرها خصوصا فى قطاعات الشباب والطلاب ، فالتربية السياسية السليمة هى نقطة انطلاق أساسية لتخريج كوادر قادرة على قيادة العمل الوطنى فى قطاعاته المختلفة ومواجهة تيارات العنف السياسى أو التطرف الفكرى ٠

خامسا : أهمية الفصل بين مشكلات الفتنة الطائفية من جانب وظاهرة التطرف الدينى فى الجانب الآخر ، صحيح أن الأولى تكون احدى نتائج الثانية ولكن لا يجب أن تكون هناك أزمة ثقة تؤدى الى المخاوف المتبادلة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر اذ أن الواقع أنهما معا فى قارب واحد فالوطن يطفو كله أو يغرق كله لا قدر الله ٠٠ والأمر يقودنا هنا الى أهمية الاصلاح الطائفى وما يتصل بتظنيم دور العبادة ورعاية الأغلبية للأقلية كما دعا اليها الاسلام الحنيف ، فالعنف السياسى والتطرف الدينى ليس موجها ضد

الأقباط لذاتهم ولكنه يبحث لنفسه عن نقاط يمر من خلالها لاسقاط هيبة النظام وضرب الاستقرار الوطنى أمام الخارج بدءاً من العدوان على ممتلكات الأقباط وأرواحهم أو قتل رجال الشرطة أو ارهاب السائحين الأجانب ٠

سادسا : ان الأزهر الشريف كان دائما ملء السمع والبصر عبر تاريخه الطويل الذى اختلط فيه دوره فى الحفاظ على علوم الشريعة وأصول الدين وفقه اللغة وتراث العروبة والاسلام ، اختلط ذلك الدور العظيم بدور آخر جعله الأب الشرعى لتيار الاستنارة الفكرية والاصلاح الاجتماعى منذ بدايات القرن الماضى وتخرج منه الرواد الحقيقيون لعصر النهضة المصرية فى كل مجالاتها ، كما كان اسهام الأزهر وعلماؤه ركيزة ثابتة فى الحركة الوطنية المصرية والكفاح ضد الوجود الأجنبى أو فساد الحكم ٠٠ لذلك فان الأزهر الشريف وعلماءه ينتظرهم دور جديد يحملون فيه مصابيح الدعوة الروحية الحقيقية والتوعية الدينية الصحيحة وتنقية أجواء الدعوة من الدخلاء عليها وابعاد العناصر غير الواعية عن ميدان التوعية ، والامام الأكبر له استقلاله النسبى عن جهاز الدولة ومكانته الرفيعة فى العالم الاسلامى وهو قادر بذلك على أن يقود مسيرة روحية مؤثرة فى مواجهة تيارات التطرف الدينى أو موجات العنف السياسى يدعمه فى ذلك الرموز الكبيرة من الدعاه والمفكرين الاسلاميين داخل الوطن وخارجه ٠

سابعا : السعى لدفع الشباب نحو مشروع وطنى كبير يجتمعون حوله ويمتص طاقتهم الدافقة ويسحب من تيار التطرف كوادره التى اندفعت اليه تحت وطأة الفراغ وشبح البطالة ، والشباب هو ذخيرة كل وطن وأمل مستقبله فلابد من حشد امكاناته الهائلة فى عمل له عائد فردى وجماعى وهناك تصورات كثيرة لذلك مثل قوافل الشباب لاستصلاح الصحراء وامتلاك أراضيها ويجب هنا أن نتعلم

من سلبيات التجارب السابقة فى هذا المجال بايجاد حافز للشباب لا يجعله ينصرف عن مثل هذه المحاولة كما حدث من قبل ، وهناك افكار لمشروعات بديلة نواجه بها البطالة والتطرف فى وقت واحد مثل انشاء مراكز كبيرة لتعليم الحرف والتدريب المهنى على أن يكون هناك تعاقد مسبق لتصدير العمالة المدربة للخارج أو استخدامها فى الداخل •

ثامنا : الاتجاه لرفع كفاية الخدمات العامة ومستوى المعيشة فى أطراف العاصمة والمدن الكبرى وبعض مراكز وقرى صعيد مصر وخلق استثمارات جديدة تستوعب طاقة بشرية راكدة فى تلك المناطق ، والأمر هنا يحتاج الى امكانات مادية اضافية ولكن قد تسارع قيادات القطاع الخاص الوطنى فى الاسهام بذلك فالاستقرار السياسى يعنيها بدرجة اساسية ، اذ أن الاستثمار والسياحة يزدهران فى مناخ الحريات وفى ظل ضمانات الأمن القومى داخليا وخارجيا ، كما أن دور الطبقة المتوسطة فى المدن والعائلات الكبيرة فى الريف خصوصا فى الصعيد هام لاحتواء عناصر التطرف واستعادة معظمها الى الطريق الصحيح •

تاسعا : ان هناك مظاهر وافدة الى نمط الحياة المصرية لم تكن مألوفة فى حياتنا من قبل ولكنها جاءت فى العقدين الأخيرين مع آلاف الأسر العائدة من سنوات العمل والبحث عن الرزق فى دول الخليج وغيرها ، ومن هذه المظاهر تقليد اساليب الحياة هناك فى الملبس والمأكل وهى ترتبط بطبيعة مختلفة وبيئة اخرى ، ولقد تأثرت ملابس الرجال والنساء فى كثير من القطاعات بأزياء المناطق التى عملوا فيها وعادوا منها ، وهى مظاهر لا علاقة لها بالدين ولكنها تعكس الاحساس بامكانية التحول عن النمط المعروف للشخصية المصرية البسيطة فى ايمانها وتدينها الى نمط آخر ورث

مفاهيم مختلفة مستمدة من تراثه الاجتماعى الخاص وأسلوب استقباله للأفكار الجديدة ٠

عاشرا : ان عبقرية الشعب المصرى تميزت عبر تاريخه الطويل بالقدرة الواضحة على التمييز بين الثوابت والمتغيرات ، ولذلك حمل هذا الشعب شعلة التنوير والتغيير فى مراحل حرجة من تاريخ المنطقة ، وهو قادر الآن على توظيف هذه العبقرية الموروثة لمواجهة تيارات التطرف وموجات الارهاب ، وليس معنى التغيير بالضرورة هو تغيير الأشخاص فقط بقدر ما هو تغيير الأساليب والسياسات سواء فى مناهج التعليم أو برامج الاعلام او مجالات الثقافة أو غيرها من روافد تكوين الشخصية المصرية حتى تكون قادرة على مواكبة روح العصر والتهيؤ للقرن الحادى والعشرين ٠٠

تلك محاولة أردت بها أن أضم صوتى الى كل الاجتهادات المخلصة للخروج بالمواجهة من أسلوبها الأمنى المحدود لتصبح مواجهة وطنية شاملة على جبهة عريضة تستقطب اليها كل مصرى ومصرية فى وقت لا تجدى فيه السلبية ، ولا ينفع فيه الانزواء ، فهى قضية شعب صنع الحضارات ٠٠ ووطن احتضن الثقافات ٠٠ وأرض باركتها الرسالات ٠

د٠ مصطفى الفقى

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٥٠٧١

ISBN — 977 — 01 — 3413 — 9


Bibliotheca Alexandrina
01171252